سلسلة الفتوحات العزمية

(٢٠)

الدين الجديد

الوهابية والوهابيون ١٨١١-١٨١٩

الباب الثامن من كتاب
(مصر فى القرن التاسع عشر)

تأليف
إدوارد جوان
تعريب
محمد مسعود

الجزء الأول

لجنة البحوث والدراسات
بالطريقة العزمية

جميع حقوق الطبع والنشر والتصوير
والاقتباس والترجمة والنقل محفوظة

الطبعة الأولى

جمادى الثانى ١٤٢٧هـ - يولية ٢٠٠٦م

رقم الإيداع
١١٩٩٨/ ٢٠٠٦

الترقيم الدولى
٩٧٧-٥٩٧٣-٧١-٤

محتويات الكتاب

الموضوع **الصفحة**

الافتتاحـــــية: المؤامرة الكبرى على مصر ٤

تـــمـــهـــيـــد: الوهابيون اللصوص ١٠

الفصـــل الأول: الدين الجديد ١٥

الفصل الثانـــى: الحملة المصرية الأولى للقضاء على الوهابية ٢٠
المجزرة الوهابية بقنفذة ٥١
محمد على ومكارم الأخلاق ٥٣
الأعراب يطلبون الحماية من الوهابية ٧٦
المصريون كفرة ومشركون ٨٥
آل سعود والوهابية لا عهد لهم ٨٨
نفاق آل سعود ١٠١
خيانة ابن سعود للوهابية ١٠٤

الفصل الثالـــث: الحملة المصرية الثانية للقضاء على الوهابية ١٠٦
إبراهيم باشا يزور الحبيب ﷺ وآله ١١٦
الإجرام الوهابى فى حق روضات الصالحين ١٢٣

الافتتاحية

المؤامرة الكبرى على مصر

الحمد لله رب العالمين، يبتلى خلقه ببعض ما يجهلون أصله، تمييزاً بالاختبار لهم، ونفيـــاً للاســـتكبار عـــنهم، وإبعاداً للخيلاء منهم، ولكنه سبحانه رضى لهم التواضع، فألصقوا بالأرض خدودهم، وعفَّروا فى التراب وجوههم، وخفضوا أجنحتهم للمؤمنين، وكانوا أقواماً مستــضعفين، فأكرمهم الله تعالى بعواطف بره، وواسع نعماه، وعمـــيم إحسانه وعنايته ومعونته.

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد، رحمتـــك العامة للعالمين، ونورك المشرق لأهل اليمين، وصراطك المستقيم لمن جذبتهم عنايتك من المقربين، الظـــاهر بـــك عنك للصديقين، والدال بك عليـــك للأوابـــين، المقـــصود الأعظم لأهل محبتك المؤلهين، وأنوار القـــدس الأعلـــى للعارفين، بسر النيابة فى المكانة، وغيـــب الحقيقـــة فـــى الإنابة.

اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وآله صلاة ذاتية، تشرح

بها صدورنا، وتيسر بها أمورنا، وتجملنا بها بحلل العافية من كل بلية وسقم، وتهب لنا بها أبواب الخير.. آمين يا رب العالمين.

أما بعد:

كان للحركة الوهابية فضل كبير فى تولى وتثبيت آل سعود باغتصاب معظم أراضى شبه الجزيرة العربية، وإقامة مملكتهم، لحماية أبناء عمومتهم، والسيطرة على المقدسات. ومع ظهور النفط ووجود الحرمين الشريفين هناك، سعى حكام تلك البلاد لفرض زعامتهم على العالم الإسلامى، مما سهل للوهابيين نشر أفكارهم ذات الطابع المتشدد الذى يجنح للغلو والتطرف، وفرضها على العقل الإسلامى فى شتى أنحاء العالم، وما كان ذلك ليتم لولا تراجع مقدرات مصر الاقتصادية تحت وطأة الديون والحروب المتواصلة مع العدو الصهيونى، وهو الأمر الذى أدى بدوره لتحجيم دور الأزهر بفكره المتسم بالوسطية والاعتدال، ولقد كان الأزهر من الوداعة والمسالمة والتضحية بمكان تنازل معها عن دوره المؤسسى فى خدمة الإسلام فى كل مكان، بل تمكنت

الوهابية من اختراق الأزهر نفسه بإغداق الأموال وشراء الضمائر، وبذلك باتت الروح الإسلامية فى يد أخرى جديدة هى اليد الوهابية بما لها من أصول وروافد وأهداف وغايات جديدة، وبرامج جاهزة، وخطوات محددة لتنفيذها، وفقاً للمخطط القديم الذى وضعته وزارة المستعمرات البريطانية لمحمد بن عبد الوهاب!!.

ولما أصبحت الروح الإسلامية بيد الوهابية أظهرت الأخيرة مواهبها الهائلة فى الحقد على مصر وشعبها الصوفى- صاحب الأيام الخالدة ضد أعداء الدين- فراحت تبث سمومها لطلبة العلم بالحجاز ونجد وعسير والأحساء وغيرها فى صورة دروس مزيفة تتهم مصر بغزو الحجاز، واحتلال الدرعية، والاعتداء على الجزيرة العربية.. وغير ذلك من الأكاذيب، ولا عجب فقد كان أسلافهم يصفون المصريين بالكفار والمشركين، وإذا وقعوا فى الأسر قبلوا الأيادى، وقالوا: يا سيدى العفو.

وكان المصريون يسمونهم الخوارج، وأعداء الدين، والمجرمون.

لذلك رأت لجنة البحوث والدراسات بالطريقة العزمية

أن تدرس التاريخ الصحيح للحملة المصرية على الجزيرة العربية، وتكشف عن أسبابها ونتائجها، مع التعريف بقوادها وأخلاقهم، فكان أصدق ما كتب فى ذلك هو كتاب (مصر فى القرن التاسع عشر) وهو كتاب محايد، يمدح فيه الكاتب الطرفين فى أحيان كثيرة، وأيضاً يعيبهما فى مواطن أخرى.

لم يخرج محمد على وأبناؤه لقتال الوهابية وآل سعود إلا بعد صدور فتاوى من الخلافة الإسلامية بالآستانة، وفتاوى أخرى من الأزهر الشريف- للأسف أخرجتها أيدٍ خائنة من أرشيف الأزهر- تؤكد ضرورة القضاء على هؤلاء المجرمين اللصوص قطاع الطرق، وكانت أسباب الحملة تتلخص فيما يلى:

١- الوهابيون يعذبون ويحتقرون أبناء المهاجرين والأنصار فى مكة والمدينة، ويعذبون ويحتقرون المجاورين الأتقياء، ويرون من الفضائل قتل المؤمنين الموحدين، وسبى نسائهم، وسرقة أموالهم.

٢- التحريض على العصيان والخروج على الخلافة الإسلامية، وتفريق كلمة المسلمين.

٣- سد سبل الحج وقطعها على الحجاج.

٤- سرقة جواهر وتحف الروضة النبوية الشريفة، وهدم القباب والأضرحة على روضات أهل البيت والصحابة والصالحين، دون مراعاة لحرمة نبى أو ولى.

٥- لولا تحكيمهم البتار فى الرقاب لما استطاعوا نشر دينهم الجديد، أو ألقوا الفزع فى القلوب تمهيداً لقبوله، حيث يحكم متبعهم على نفسه أنه كان على ضلال، وأن آباءه وأجداده كانوا على ضلال وفساد.

وقد استطاع محمد على باشا وأولاده من القضاء على هذه الفتنة العمياء، وأسر عبد الله بن سعود وعصابته، حيث قطعت أعناقهم بالآستانة.. وأقامت القبائل العربية بالجزيرة الأفراح بعد سقوط الدرعية عاصمة الوهابية بيد المصريين، وشاركهم العالم الإسلامى أجمع فرحتهم.

ولما عاد الجيش المصرى نقض الوهابيون عهودهم التى قطعوها على أنفسهم، بأن يتركوا بدعة الوهابية، ويعودوا إلى الإسلام، بل وعملوا على الانتقام من مصر عن طريق نشر الفكر الوهابى الإرهابى بإغداق الأموال والكتب المجانية على أبواقهم فى مصر- وهم: الإخوان

المسلمون.. الجمعية الشرعية.. أنصار السنة المحمدية.. الجماعات الإسلامية- لتكفير الصوفية، واختراق المؤسسة الدينية فى مصر.

لذلك إذا لم ينتبه الشعب المصرى لهذا الخطر الجاثم على صدره، وتمكن الوهابيون- لا قدر الله- من السيطرة على مصر، فلن تقوم للأمة الإسلامية قائمة على المدى البعيد.. فنسأل الله تعالى أن يجمع أمرنا، ويهدى ضالنا، ويوفقنا لما يحب ويرضى.

لجنة البحوث والدراسات
بالطريقة العزمية

D:\كتب\الوهابية\٢٠doc.

تمهيد

الوهابيون اللصوص

وقعت فى الحجاز مناكر ضد الدين أثارت خواطر المسلمين بمصر وتركيا وفارس وجزيرة العرب. ذلك أن الدين الإسلامى يفرض على كل مسلم حج البيت الحرام ولو مرة واحدة فى العمر إذا استطاع إليه سبيلا. ووجه الاستطاعة أن لا يكون فقيراً أو به مرض. وفى مذهب أبى حنيفة مايبيح للمسلم الاستعفاء من الحج إذا أنفق على من يحج بدلا منه.

الوهابيون يعتدون على الحجاج

والحجاج يتواردون على الحجاز كل عام من جميع الشرق، وتمر قوافلهم فينمو عددهم بانضمام غيرهم من الحجاج إليهم، ومن كان من هؤلاء فى يسر وغنى أخذ الهدايا برسم المسجد الحرام. وجرت العادة بأن يرسل السلطان وولى مصر صرة من المال فى كل سنة، فيقوم المحمل بالكسوة وبالهدايا قاصدا إلى الحجاز بحراسة شرذمة من الجند، ويرافق الحجاج والتجار المحمل

مدججين بالسلاح، ويأخذ بمقوده أحد بكوات مصر إذا كان مصريا، أو والى الشام إذا كان شاميا. وكانت السفن تشتط السواحل لحماية النقل على البر. وكان النوتية الأتراك يجهل سوادهم الملاحة فكانت مراكب الصيد تجرأ على ضبط تلك السفن وتأسر ربابينها وتنهب مشحونها من الأقمشة والبن والعطارة، وكانت الآبار فى الطريق تحميها حاميات صغيرة من الجند، ثم دمرت وسدت فلم تعد نافعة لشىء، وكانت تبلغ الجرأة بالأشقياء[١] إلى حد مطالبة الناس بجزية عن الأنفس أو أداء مبلغ من المال أو مقدار معين من الأقمشة والثياب فى مقابل السماح لهم بحرية الطريق. فإذا لقوا معارضة لا يلبث الفريقان أن يلتحما فى معركة كثيرا ما تنجلى عن قهر القافلة الواردة من القاهرة أو دمشق أو بغداد، وحرمانها بذلك من أداء الفرض الذى من أجله جاءت إلى هذا المكان.

(١) أى أتباع محمد بن عبد الوهاب.

D:\كتب\الوهابية\٢٠doc.

الوهابية اللصوص

يسرقون تحف الروضة الشريفة

على أن الحرمين الشريفين ذاتهما كثيرا ما كانا يتركان فى نفوس الطامعين أثرا طالما أفضى إلى امتداد الأيدى إليهما بالسلب والنهب، فإن مكة المكرمة وهى بيضة الإسلام، والمدينة المشرفة وهى مهبط الخلافة، كانتا تحتويان المخلفات النبوية ونفائس نادرة رفيعة القيمة، فكان لامفر من أن يعدو عليها العادون ويعبث بها العابثون. وقد ارتكبوا هذا الإثم فعلا إذ دمروا أضرحة الكثيرين من آل بيت النبوة فى العراق والطائف والمدينة، وهدموا القباب، وكانت القبة الكبرى التى فوق الضريح النبوى على وشك أن تتناولها المعاول بالهدم لولا حلماً أزعج المجترىء على اعتزام ارتكاب هذه الجريمة فعدل عنها، واقتصر المعتدون الأشقياء على انتزاع الزينة والزخارف، وسلب الهدايا الواردة من جميع الأنحاء منذ وفاة النبى إلى ذلك العهد. كالأوانى والقناديل والشمعدانات المصنوعة من الذهب الخالص وحوَّلوها إلى سبائك، وكذا صفائح الذهب التى كفتت به الجدران والأخشاب،

وخمسمائة لوح من النحاس مصفحة بالذهب، وعشرون سيفا مرصعاً بالجواهر، ومقدار جسيم من السجاجيد الطهرانية والأصبهانية والأرضرومية، واللؤلؤة الكبيرة بحجم بيضة الحمام المعلقة فوق الضريح الشريف والمعروفة باسم الكوكب الدرى، كل ذلك سلبوه بلا خوف وباعوه علناً، فاشترى الشريف غالب منها مالا تقل قيمته عن مائة ألف قرش، وحمل المفسدون مالم يبع فاقتسموه بينهم بالقرب من كربلاء بعد أن حسبوا حسابه.

وهنا محل للسؤال: هل حب السلب والنهب هو الذى أغرى وحده أولئك المفسدين بالتخريب والتدمير؟ إنهم كانوا وهم يخربون ويدمرون لا يكفون عن قولهم: (إن الله يغفر لمن يهدم هذه المبانى الشاهقة ويجردها مما تحتويه، ولا يغفر لمن بناها ولمن زخرفها) ثم إنهم كانوا يقولون على سبيل تقرير المبدأ: أن حجراً واحداً يوضع شارة على روضة الميت خير من الضريح المزخرف، وأن القبر من غير زخرفة خير منه بها، وهو ما يؤخذ منه أن ذلك السطو وتلك السرقة تستران تحتهما شعورا دينيا، تذكيه حرارة المشايعة للدين والتعصب له والدعوة إلى

حقيقته المجردة. ومن هم أولئك الأشقياء الذين قطعوا السبيل بين جدة والبصرة، وبين البحر الأحمر والخليج الفارسى؟.. والجواب على ذلك فى الأسطر الآتية بعد.

الفصل الأول

الدين الجديد

فى القرن الأخير من الميلاد ظهر بجزيرة العرب شيخ اسمه محمد بن عبد الوهاب بمذهب محدث فى الإسلام، يقضى بأن يكون الإيمان مؤيداً بالسيف، وأن ترجع العقائد والمعاملات إلى صراحتها الأولى بلا تعقيد ولا إبهام. ولم يقتصر على ذلك بل ذهب إلى نبذ الأحاديث النبوية، والقول بأنه لا كتاب من الكتب المنزلة أبلغ بالوحى الإلهى على لسان جبريل، وأن قوة الله تشمل الكون بأسره ولا قوة فيه إلا قوته تعالى، وأن محمداً لم يكن إلا بشرا عرف بالخير والدعوة إليه وأنه كموسى وعيسى من المصطفوين عند الله، وأن الاعتقاد بالأئمة والتوجه بالدعاء إليهم ونسبة مالم يكن فى طوق البشر من القوة لهم- كالكرامات وغيرها فى حياتهم ومماتهم- كفر بالإيمان وانحراف عن الطريق القويم، وأن النساء لا ينبغى لهن التحلى بالذهب والفضة ولبس الحرير، كما لا يجب إقامة الأضرحة ولا القباب ولا الزخارف المفضية

إلى عبادة الأصنام. وتفرض تعاليم الوهابية- فيما عدا ما تقدم- إيتاء الزكاة والجهاد فى سبيل الله والقناعة فى الشهوات وإقامة العدل بين الناس.

وهذه التعاليم والمبادىء تجمع إلى الشدة والصرامة الجلال والاستقامة. فالوهابيون ليسوا إذا بالنسبة للإسلام إلا كالبروتستانت بالنسبة للمسيحية من جهة العقيدة، وكالبوريتان الإنجليز الذين يذهبون مذهب التشدد والصلابة فى الأخلاق من جهة الفضائل. وإنما يؤخذ عليهم أنهم كانوا لا يتسامحون مع أضدادهم فى المذهب، إذ كان لا يزعهم وازع عن إيذائهم ومعاملتهم بالعسف والشدة كلما تحينوا الفرصة لذلك، فقد كانوا يتعدون على الحجاج ويسلبون السابلة ويريقون دماءهم، وبعد أن ينهبوا السفينة يلقون بنوتيتها فى البحر ثم يمضون كما لو كانوا عائدين من مصاد لؤلؤ أو غرس نخل لبث دعوتهم، والوقوف بين الناس موقف الوعظ، أو الصلاة لحمد الله على ما أولاهم من نعمة القناعة والتطهر من أدران العيث والفساد. وكان إذا عارضهم أحد أو وقف فى سبيل نشر دعوتهم، أو أنكر خطتهم فى غاراتهم ذبح بلا رحمة.

ولولا تحكيمهم البتار فى الرقاب لما استطاعوا نشر عقيدتهم، أو ألقوا الفزع فى القلوب تمهيدا لقبولها، وهاك مثالا من الدعوة التى كانوا يدعون بها جيرانهم إلى مذهبهم (معنى لا مبنى):

(بسم الله الرحمن الرحيم، من خير القبائل إلى فلان من أعيان البلد الفلانى ..إن الإسلام هو الإيمان حقا بالله وبرسالة نبيه، وبه يتميز المسلم الصادق من الكافر، والذين يتولون الحكم عليكم وتأتمرون بأوامرهم قد ملأ الفساد والظلم وارتكاب المنكر قلوبهم، أما نحن فعلى غير ذلك ننصح لكم بالعودة إلى الإيمان والإسلام، وقد جئنا إليكم بجيوش من المؤمنين، فمن منكم أراد الإسلام فليكتب لنا بما أراد، فإننا نترك له أملاكه ونقيمه فيما تحتويه من عرض الدنيا. واعلموا أننا وصلنا بسلامة الله، وسنجىء إليكم بحشد حشيد من الجنود للجهاد على بركة الله وحسن معونته، وهذا بلاغ إليكم فمن منكم تخلف عن الكتابة إلينا بموافقتنا جرد مما يملكه، ولا يعترف به أحد منا، وسنصل إليكم- إن شاء الله- فى هلال الشهر المقبل، وهذه آخر مرة ندعوكم فيها إلى

الدين الصحيح، فتكون بلادنا وبلادكم سواء.. والسلام على من اتبع الهدى)

فإذا بقى البلاغ الأول والذى يليه بلا إجابة، بعث الوهابيون بلاغا ثالثا كهذا جعلوه عنوانا على فتح باب الخصومة التى لا واقى من شرها، إذا كبير الوهابيين أخبر جنده- وقتئذ- بأنه لم يبق مجال للتسامح، وأطلق لهم حرية النهب والقتل. وإذا كانت ثمة وسيلة واحدة لافتداء الحياة وصيانة شىء من المال فهى دفع مال الزكاة إلى جباة معينين لهذا العمل، يباشرونه فى شتاء البلاد الخاضعة للوهابية، وجبايتها بنسبة رأس واحد من المعز من كل أربعين رأساً، وقرش واف عن كل خمسة جمال، وما يعدل ثمانية فرنكات عن كل رأس من الخيل، ويجب على دافع الزكاة الإقرار فى عهد يؤخذ عليه بأنه قد تحول عن عقيدته الأولى، ويجهر فيه بأنه كان إلى وقت تحوله فى غير طريق الهدى، وأن القبور التى تضم رفات آبائه وأجداده إنما تحتوى بقية قوم كانوا على ضلال وفساد. وقال (نيبهر) الذى زار بلاد الإسلام ووصفها فى سنة ١٧٧٣: (منذ زمن قريب ظهر فى إقليم العرب مذهب

جديد سيقلب هذه البلاد رأساً على عقب). وكان نظر نيبهر ثاقباً صائبا فإن الوهابيين بدأوا بإخضاع ست وعشرين قبيلة كبيرة من القبائل العربان التى تنتجع نجدا فى كل خريف، ثم ثنوا بالولايات المجاورة فانهالوا على حكامها وشعوبها بالقدح والتعزير فلم يلبثوا أن استولوا بهذه الوسيلة على الحجاز واليمن، ثم أخذوا يتهددون ولايتى دمشق وبغداد. وكان العالم الإسلامى حينئذ بحالة يرثى إليها من الضعف والانقسام؛ فلم يسع بلاده- التى فتحت أبواب حدودها بما ساد فيها من الفوضى لأولئك الأدعياء الأشداء- إلا أن صاحت مستصرخة طالبة إعلان الحرب على أولئك المبتدعة.

وهذه الحرب هى التى قام بها محمد على وابناه إبراهيم وطوسن فيها بمثل ما قام به (جودفروا) و(تنكريد) و(رينو) فى الحروب الصليبية.

D:\كتب\الوهابية\٢٠doc.

الفصل الثانى

الحملة المصرية الأولى للقضاء على الوهابية

وكانت مصر أوفق المواقع لابتداء الزحف منه استخلاصا للحرمين الشريفين من أيدى الوهابيين، وكان هؤلاء يستوردون منها حاجاتهم المعيشية عن طريق البحر إلى ثغرى جدة وينبع. وهناك اعتبارات مهمة حملت الباب العالى[١] عقب إمضائه معاهدة (بوخارست) على الاستمداد بالباشا فى قمع الوهابيين، منها أنه كان أقوى ولاة الدولة وأقدرهم بمواهبه الذاتية على إيقافهم عند حدهم، وكان السلطان سليم الأول لما هزم المماليك الشراكسة وقتل آخر ملوكهم أسمى نفسه فى خطبة الجمعة (خادم الحرمين الشريفين)، وتسمى السلاطين من بعده كذلك، ثم تلقب بألقاب الخلافة، فكان من المفروض على سلطان آل عثمان بهذا الوصف أن يكون أول ما يهتم به

(١) الخلافة الإسلامية فى الآستانة.

قمع أعداء الدين والقضاء على بدعهم. وكان من اختصاصه بالطبع النظر فى أمور الدين إلا أن سياسته كانت لاتخلو من أثر التخوف والتهيب من امتداد شوكة محمد على ونماء قوته ونفوذه نماء محسوسا موجبا للحذر، فكانت فى ذلك الوقت تقضى بأن تزج- فى حرب محفوفة بالصعوبات والأوعار مع أولئك الثوار الخوارج المبتدعين- والياً تخشى نزعاته الاستقلالية، لتضعف قوته وتستنزف أمواله، وتجعل سلطانها عليه بذلك مؤكداً.

تجهيز الجيش المصرى

باشر محمد على بنفسه اتخاذ التدابير لمحاربة الوهابيين، ورأى أن هذه المحاربة تستلزم إنشاء دوننمة لنقل الجنود والذخيرة والمؤن فى البحر الأحمر، وكانت الوسائل متوافرة عنده لبنائها، دع أنه كان من قوة الإرادة وشدة العارضة بحيث يستطيع التغلب على ما يعترضه من العقبات، فلقد جلب فى زمن يسير من موانىء بلاد الترك الأخشاب والحبال والحديد وكل ما يستلزمه بناء السفن، ولما أتم تفصيل أجزائها نقلها إلى السويس على

الجمال، وكان كثيراً ما يستدعى نقل القطعة الواحدة الثقيلة جملين أو أربعة جمال تقف على صف واحد، فلا غرو إذا نفق الكثير منها تحت عبئها الثقيل. ولقد توقع ذلك فتدارك عواقبه من قبل بالاستعاضة عن تلك الحيوانات بعربان الصحراء إذ استخدم عشرة آلاف منهم لنقلها، حتى تمكن بذلك من تركيب ثمانية عشرة سفينة فى مدة شهرين، يختلف محمول كل منها مائة طن إلى مائتين وخمسين طنا بمعرفة ألف عامل كان من بينهم أروام وإفرنج، وجعل الوالى بالقصيرمستودعات للحبوب، وبالسويس مستودعات غيرها للبقسماط وأصناف الغذاء، وباشر بنفسه تشهيل هذه المهمات وإعدادها، ثم عاد من السويس إلى القاهرة فى ثمانى عشرة ساعة بينا القوافل السريعة السير لا يتيسر لها اجتياز هذه المسافة فى أقل من ثلاثة أيام. وعجز من كان معه عن إدراكه إلا واحدا منهم مات هجينه من تحته، فأردفه الباشا حتى وصل إلى السراى.

وكان قد تقرر تحديد يوم ٥ صفر الموافق أول مارس لتولية طوسن باشا قيادة الحملة، فأجل هذا الموعد إلى يوم

٨ ربيع الأول الموافق ٢ أبريل الذى انقضى كله فى إطلاق المدافع (الشنك) وعزف الموسيقى. وكان طوسن باشا فى موكب التقليد بخلعة القيادة التى تسبقه الدواب المطهمة[١] يمسك بأعنتها التتر ويرافقه كيخياه ويتبعه حرسه، وكان محمد على وحسن باشا بأحد المساجد للتفرج.

وفى الأسبوع التالى قصد الوالى إلى الأسكندرية وفيها باع للإنجليز أربعين ألف أردب من القمحُ، وقبض فى سفره على أحد المشايخ من قبيلة أولاد على، وفرض عليها فرضة مبلغا جسيما من المال. وبعد عودته إلى القاهرة فى ٢٥ مايو فرض على المياسير من أهلها أن يقدموا إليه إما بغلا وإما خمسمائة قرش، وجند من أرباب الحرف والصنائع جيشا برسم الحملة.

وفى ٢٤ شعبان الموافق ٣ سبتمبر نزل فى السفن تحت نظر الباشا ومباشرته ٦٠٠٠ عسكرى أغلبهم من الأرنؤود، ومعهم ذخائر الحرب، فأقلعت قاصدة ثغر ينبع.

(١) أى: الضخمة المستوحشة السمينة المتناهية الحسن.

أما فرسان الترك والعربان وعددهم ألفان فقد تحركوا إليه برا يوم ١٩ شوال الموافق ٦ نوفمبر، وكان طوسن باشا فى الجيش البرى تتبعه قافلة عظيمة تحمل الماء والمؤن والخيام والأمتعة. وكانت سنه لا تتجاوز عامئذ السادسة عشرة إلا أنه برهن فى حروب المماليك على قوته وشدة بأسه. وقد ضم إليه أحمد آغا الخازندار الذى لبسالته لقب ببونابرت. ونيط (عُهِدَ) بالسيد محمد المحروقى- وهو أكبر تجار القاهرة وأغناهم- بعض أعمال الحملة، ومنها الاتفاق مع العربان النازلين على شواطىء البحر، وأخذ معه شيوخا من المذاهب الأربعة لوعظ الناس وحضهم على الدفاع عن حومة الحرمين الشريفين، والذود عن السلطان والوالى.

الاستعداد الوهابى وهزيمة المصريين

أما الوهابيون فقد جميع زعيمهم سعود الجندى الباسل والسياسى المحنك خمسة عشر ألفا من المقاتلة بقيادة ابنه عبدالله وعثمان المضايفى، وعهد إلى الشريف غالب بالدفاع عن جدة وينبع، وكان بين الشريف ووالى مصر

اتفاقات سرية، رام الأول بها الانتقام من الوهابيين لتغلبهم عليه وإهانتهم إياه، فكان أول همه حينما وصل الأسطول الانجلاء بجنوده عن ينبع. وكانت حاميتها من الوهابيين لا تزيد على ٣٠٠ رجل، فقتل بعضهم وأسر الآخرون، واستولت الحملة المصرية عنوة عليها، ووصل طوسون باشا بعد ذلك بخيالته فأجهز على بقية الوهابيين، وأتم هذا الاستيلاء وعززه لأنه كان يكفل للحملة ملجأ أميناً للسفن، ومستودعا حريزاً للمؤن والذخائر ويبشر بالنجاح المأمول. وقد سقطت بيد الأمير قريتان بعد ذلك فشجعه فوزه على السير فى يناير ١٨١٢، ولما أوغل بمقدار عشرة فراسخ ووصل إلى بدر- التى تظللها النخيل وأشجار الليمون والموز- التقى بالوهابيين للمرة الأولى، فاضطرهم فى معركة دامت ساعتين إلى التقهقر تاركين ٦٠ قتيلا، واصفين المصريين فى صياحهم بأنهم كفار ومشركون.

لم يلبث طوسن أن اتجه نحو الصفراء التى لجأ إليها العدو وتحصن بها، وكان بين الصخور الصلدة المتشعبة دونها مضيق لا يزيد عرضه على ٤٠ متراً ويبلغ طوله

D:\كتب\الوهابية\٢٠doc.

مسيرة ساعة ونصف. وكان الوهابيون فى عشرين ألف مقاتل بقيادة عبد الله وفيصل ابنى سعود، فسدوا حلق المضيق بأهداف ودكاكين من الحجر، فلما رأى طوسن ذلك تحمس وتحفز للهجوم وهاجمهم بالفعل حتى صدهم إلى منتصف الحلق، ولكن شرذمة كثيفة من الوهابيين وصلت من نجد فانتشرت بأعالى الروابى الصخرية الحافة بجانبى المضيق، فاضطرته إلى التقهقر فى عناء وشدة، ولطالما حض المؤخرة على الثبات وخاض بنفسه صفوف الوهابيين لا يصحبه من رجاله سوى فارسين قائلا لعساكره ودموعه منهملة من عينيه: (أما منكم من يقتدى بقائده؟) فكان لا يجاوبه أحد على ندائه الحماسى حتى خيل له أن نوعا من الخبل والاختلاط قد استولى عليهم جميعا، فتركوا الجمال والمهمات والمدافع وكل ما كان معهم من ورائهم، وعظمت النكبة حتى أنه لم يتيسر لقواد الجيش- الذى كان مؤلفاً من ٨٠٠٠ مقاتل- أن يجمعوا فى بضعة أسابيع من فلوله المشتتة سوى ثلاثة آلاف جندى. وكان عدد من قتل منه ٦٠٠ عسكرى، وأضل الباقون الطريق فى ظلام الليل فماتوا جميعاً تعبا

وعطشا وجوعا وقتلا بسيوف الوهابيين الـذين انتـشروا لمطاردتهم، ولو أنهم أخلوا مواقعهم لاقتفاء أثر تلك الفلول ومطاردتها لما بقى منها من ينعى إلى محمد علـى هـذا المصاب الأليم. وكثيرا ما كان هذا الوالى يحنـق علـى عساكره إذا نفى إلى الصعيد من يتخلون منهم عن القتـال وينكصون على الأعقاب، بل لطالما محا أسـماءهم مـن دفاتر ذوى الرواتـب وأقـصى كبـراءهم عـن الـديار لتقصيرهم فى أداء الواجب، فكان فى مقدمة هؤلاء قائـد من أكبر قواده ألا وهو صالح قوج.

طوسن يفتح المدينة وجدة ومكة

اعتقد الوهابيون أن المصريين لن يقوموا من سقطتهم هذه فعادوا إلى بيوتهم تاركين بقلعة المدينة حامية مـنهم، وبالمضائق جماعة من أهل الجهـة لحراسـتها، وعـاد طوسن إلى ينبع فاهتم بتحصينها وإخضاع من حولها من مشائخ القبائل بقوة السيف تارة وقوة المال أخرى، وتلقى من والده على أثر ذلك الفـصائل الأولـى مـن الحملـة الجديدة. فلما كان شهر أكتوبر ١٨١٢ أنـس فـى نفـسه

القدرة على أخذ المدينة، وكان الوهـابيون غـافلين بـل نائمين فى ظل انتصاراتهم السابقة. وكانت قبائـل بنـى صبح وبنى سالم –وهم أفخاذ من قبيلتى حـرب وجديـده والعربان الذين فى الطريق التى اعتزم السير فيهـا– قـد أقسموا فى حضرة طوسن باشا أن يكونوا دائمـا أعـداء أعدائه، فنقل طوسن معسكره إلى بدر واجتاز بلا عنـاء مضايق صفراء، وواصل السير حتى بلـغ إلـى أسـوار المدينة. وكان يحميها جيش من الوهـابيين، وأسـوارها الرفيعة وقلعتها الحصينة، وكان فيها من المؤن ما يكفـى لمقاومة الحصر طويلا. ولم يكن مـع المـصريين لفـتح الثغرات فى الأسوار سوى مدافع الميدان الخفيفة، فـضلا عن أن المقاتلين بها كانوا لا يجسرون (يجـرأون) علـى العمل بها عملا جديا نشيطا خـشية أن يتـصدع بـسببها الحرم النبوى. على أن طوسن باشـا كثيـرا مـا صـد الوهابيين ونال منهم كلما التمسوا الخروج مـن المدينـة، ولقد لجأ إلى بث (زرع) الألغام لنسف الأسوار، وبعـث إلى السكان لينذرهم بوجوب ملازمتهم المساكن وحملهـم الثياب المألوفة لكيلا يمسهم العساكر بسوء إذا اسـتطاعوا

تمييزهم عن الجنود المدافعين.

وفى اليوم التالى كان الوهابيون يؤدون فريضة صلاة الظهر، إذا بجزء من الأسوار قد انقض، ودخل المحاصرون المدينة من ثغرته وانتشروا بأرجائها، فقتلوا فريقا من الحامية، ولجأ الفريق الآخر إلى القلعة واضطر هؤلاء إلى التسليم فى نهاية الأمر لانقطاع المدد عنهم وانتشار المجاعة فيهم، فأذن لهم الظافرون بأخذ مالهم من الأسلحة والمتاع عند مبارحتهم المدينة، وبالغوا فى إكرامهم إلى حد أنهم أعطوهم من الجمال ما يكفى لنقل المرضى والجرحى، وعنى أحمد بونابرت (أو بونابرتة الخازندار كما يسميه الجبرتى) بجمع ألف رأس ممن قتلوا بالمدينة، وشاد بها برجاً على الطريق الموصل إلى ينبع، وكان أهل هذا الثغر قد ملوا الحصار لاستمراره ٧٥ يوماً فتلقوا المصريين كما يتلقى المكروب منقذه من الكرب، واهتم طوسن باشا بالبلاد التى فتحها فصرف فى تدبير أمورها كل عنايته، وأعاد الأمن بها إلى نصابه، واختار لحكومتها والياً حازماً، ونظم فيها الجنود، وأمر بالاستمرار على استطلاع العدو، ووضع فصيلة من الجند

فى الحناكية. ثم سار إلى البركة بجيش من المشاة، وعرج على جدة فاستقبل فيها استقبال الظافر واحتفل الشريف بمقدمه، ثم جعل إقامته بمكة.

وكان محمد على قد استكشف فى الأثناء مؤامرة ضده، أنفذ حكم الإعدام فى مدبريها وهم جماعة من زعماء الأرنؤود منهم أحمد آغا لاظ، وسليمان آغا لاظ، وصالح قوج. وكان عندئذ فى السويس متفرغاً لتنظيم المدد للجيش المصرى فى بلاد العرب، فجاءته رسالة تدعوه إلى التعجل بالأوبة، وكان خبر الاستيلاء على المدينة قد وصل إليه فى ٥ نوفمبر ١٨١٢، فبعد العشرين منه وفد عليه قصاد يحملون مفاتيح قلعتها، فبادر بإرسالها إلى الآستانة. وفى ٩ ديسمبر وصلت الأنباء بفتح جدة ومكة، فأسل الباشا إلى الآستانة قاصداً يحمل هذه البشرى، وأطلقت المدافع وأقيمت الحفلات والأعياد فى أنحاء مصر وتركيا فرحاً بخلاص الحرمين الشريفين من أيدى الخوارج.

أسر المضايفى وقتله بالآستانة

وتلا وصول الشريف غالب إلى مكة قيام سكانها بطرد الوهابيين منها، فلما زحف طوسن باشا عليها وجد أبوابها مفتوحة، ولم يظهر المضايفى وهو صهر الشريف غالب ميلا لمساعدة المصريين، بل استعان بالفرسان الخفيفة على إبادة المتخلفين، وضايق حامية الطائف أثناء صيف ١٨١٢، فعول طوسن باشا فى يناير ١٨١٣ على ملاحقته، وأخذ معه مصطفى بك الذى كان قد وصل من مصر فى فرقة من الدلاة، وطلب الشريف غالب الاشتراك فى هذه الحملة والمعاونة عليها لما كان بينه والمضايفى قريبه من العداوة لمحاولته خلعه من الإمارة والحلول محله، فلما اقترب طوسن باشا من الطائف فر المضايفى منها تاركا كل ما فيها من ذخيرة ومؤن، واعتصم بمكان على مسيرة أربع ساعات أو خمس فى صحراء أنشأ بها لنفسه قلعة فى إحدى بقاعها الجبلية، فحصرت هذا الموقع فرقة كبيرة من الجند، وأطلقت النيران عليه، فخرج المضايفى ليلا فى ثلاثين من رجاله متنكرين واخترق بهم صفوف أعدائه، فأصابت فرسه

رصاصة صرعتها، فركض على قدميه يصحبه شاب من العربان، ولكنه قبض عليه فى الصباح بالقرب من قبيلة عتيبة، وجىء به إلى الشريف غالب، وتسلم من جاء به المكافأة الموعود بها وهى ٥٠٠٠ قرش واف. وأرسل المضايفى إلى القاهرة أسيراً، فاستقبله كيخيا الوالى استقبالا حسناً، ثم أرسله إلى الآستانة حيث قطعت رقبته عقب وصوله إليها بأيام. وكان عثمان المضايفى لقسوته وشدة طمعه أكبر نصير للوهابيين، الذين لولاه لما استطاعوا فتح الحرمين الشريفين.

فتح الطائف وتبادل الهدايا

أرسل محمد على إلى الآستانة إسماعيل- ثالث أبنائه- حاملا إليها البشرى بالاستيلاء على الطائف- وهو سوق مكة ومستورد حاجاتها- وعاد منها منعما عليه بالباشوية ذات الذنبين، وسلم السلطان قهوجيه سيفاً وخنجراً وثلاث ريشات مرصعة بالماس وكرك سمور وجملة شيلان كشميرية هدية إلى محمد على، وحمله بهدايا غيرها إلى الشريف غالب، وكرك سمور وريشة ماس برسم طوسن

باشا، وكان محمد على أندى يداً وأكثر بذلا إذ أهدى إلى السلطان ٧٠٠٠٠ محبوب (٤٩٠٠٠٠ فرنك)، و٥٠٠ فرد بن (١٧٥٠ قنطاراً)، و٢٠٠ قنطار سكر مكرر، و١٠٠ قنطار سكر من مكرر المكرر (أى المكرر أربع مرات)، و١٠٠ إناء صينى مملوءة بالمربات المختلفة النادرة، و١٠٠ من كرائم الخيل نصفها بلا سروج والنصف الآخر بسروج محلاة باللؤلؤ أو المرجان، وبالات كثيرة من أفخر الأقمشة الهندية، وكمية وافرة من الأعطار الزكية.

الهزيمة الثانية للمصريين

وبينما كان المليكان يتبادلان الهدايا والتحف النفيسة كان سعود يأمر فيصلا بمهاجمة الحملة المصرية، فجعل هذا مشاته فى المواقع الحصينة وفرسانه فى حلوق الجبال، بحيث يتمكن من مفاجأة العدو والانحاء على فصائله فى كل آن. وكانت هذه الخطة الحربية محكمة التدبير، فحاول طوسن باشا أن يعرقلها ويفسدها على مدبريها بأن حشد جنوده جميعا، فانشق منه العربان الموالون كى يتفرغوا لقطع المواصلات بين الطائف

وترابة على مسافة ٨٠ ميلا منها. فلما كانت أوائل نوفمبر ١٨١٢ أنفذ مصطفى بك بقوة مصرية إلى هذا الموقع الكفيل بالاتصال بين الوهابيين فى نجد وإخوانهم فى اليمن. وكانت تحمى هذا الموقع الأسوار والخنادق، وتسترها غابة نخل كبيرة ممتدة على مسافة ثمانية كيلو مترات. وكانت القيادة العامة لجيش سعود هناك فلم تلق عناء فى صد القوة المصرية التى أنهكها التعب وحث السير. وكانت تقود المهاجمين امرأة اشتهرت بالبطولة اسمها غالية أرملة شيخ قبيلة صبيح.

قرر مصطفى بك استئناف الهجوم فى اليوم التالى، فأبان له الضباط خطر هذا الفعل لما يعلمونه من قلة المؤن والذخائر على أثر استنفاد معظمها أثناء الطريق فى معارك عنيفة ضد قبيلة عتيبة التى طوردت فى الجبال. دع أن العساكر أنفسهم كانوا يأبون القتال ضد غالية لاعتبارهم إياها ساحرة تسعف الوهابيين بمساعدتها وتؤيدهم بنصرها. وحقيقة الواقع أن هذه العجوز كانت تبث الحماس فى نفوس القبائل بمالها وهو أصدق سلاح لها، وصدق نظرها وبطولتها غير المألوفة فى بنات

جنسها. فلما آثر المصريون الانسحاب بتأثير الخوف، ألح أعداؤهم فى مطاردتهم والتضييق عليهم حتى غنموا أمتعتهم وخيامهم ومدافعهم، ونشأ عن ذلك أن ستمائة رجل من الألفين قتلوا أثناء الانسحاب، بالرغم من الجهود التى بذلها الفرسان فى تلك الأصقاع الجبلية لصد المهاجمين عن المصريين. ولم ينثن الوهابيون عن ملاحقة هذا الجيش إلا على مسيرة نهار من الطائف. ولحق مصطفى بك بطوسن باشا فى مكة، وهو فى أسوأ حال، ولم يكن حظ الجيش المصرى فى الجانب الآخر من الحجاز أسعد منه فى هذا الجانب، فإن حامية الحناكية كانت قد سلمت بنفسها إلى سعود الذى زحف من فوره على المدينة فى جيش مؤلف من ٢٠٠٠٠ رجل، وقد استفز الجند حب الاقتداء بهذا الزعيم، بل تحريضه إياهم على أخذ المراكز الضعيفة والتعرض للسابلة الذين يقصدون إلى مكة وجدة، ونشأ عن شدة القيظ فى الحجاز ورداءة الماء وقلة الغذاء وشدة التعب والعناء أن خسر المصريون فى هذه الحوادث ٨٠٠٠ جندى و٢٥٠٠٠ دابة و٥٠٠٠٠ كيس من المال. وكان طوسن باشا قد جعل فى

النقط المعرضة لمداهمة الأعداء فصائل من الجند لمعاقبة العربان عند مسيس الحاجة كلما بدت من ناحيتهم نزعة إلى الشر أو الخيانة أو اقتحموا هذه النقط ، غير أن هذه الانتصارات الجزئية لم تكن إلا كالدواء الملطف يسكن الألم زمنا ولكنه لا يستأصل الداء. ولقد نظر الوالى فى هذه الحوادث نظرة بصير فأدرك أول وهلة أن دفع الأخطار المقبلة يستدعى الاستعانة بوسائل للقتال أشد تأثيرا وفعلا من سابقتها، فأرسل من القاهرة على الفور ٥٠٠ جندى ومالا كثيرا وثيابا وذخائر إلى السويس بواسطة القوافل، ثم إلى جدة فى السفن. وكان طوسن فى هذا الثغر فصدر له الأمر بأن يجمع فى المدينة جميع قواته العسكرية، ولعلمه بتأثير نتيجة هذه الحرب فى موقف الباب العالى حياله من رضى أو غضب، ولشدة رغبته فى تأييد نفوذه الذى طالما تنازعته الشهوات وحامت حوله المطامع بمجد يكسبه بحد السنان، أراد أن يجمع إلى حسن سمعته كقائد ماهر الاحتفاظ بمحبة الناس واحترامهم له، ووقاية مصر من عيث الجنود بإبعاد الدلاة والأرنؤود، فعقد النية على الذهاب بنفسه إلى ميادين

القتال فى الوقائع التى ستنشب بينه وبين أولئك الأعداء الباسلين.

محمد على يقود الحملة بنفسه

عهد محمد على بمقاليد الحكم فى الوجه القبلى إلى ابنه إبراهيم باشا، وفى البحرى إلى حسين بك. ثم أبحر إلى السويس فى ستين من رجال حاشيته، وألفين من مشاته، بينما كان ألفا فارس وثمانية آلاف جمل محملة بالأثقال يتقدمون بطريق البر. فلما وصل إلى جدة فى ٣٠ شعبان ١٢٢٨ الموافق ٢٨ أغسطس ١٨١٣ حياه فى السفينة الشريف غالب مصحوبا بطوسن باشا، فدخل المدينة على دوى المدافع، ونزل بقصر بناه ابنه بسيف البحر. وفى ٦ أكتوبر قصد إلى مكة فزار الحرم، واستقبله- فى قصر أعده له الشريف- وفود الأعيان فألبسهم الخلع من السمور. وحافظ محمد على مدة إقامته على أداء الفروض، وألزم عساكره بأدائها فى أوقاتها. وكان يصلى الأوقات فى مواعيدها بالحرم المكى، ويدفع الأموال الكثيرة لترميمه وزخرفته، ودفع أجور القائمين على

خدمته. وكان يسهر حتى الساعة الثالثة بعد نصف الليل باحثا فى آيات القرآن مستوضحا غامض معانيها مع العلماء الذين كان يغمرهم بعطائه ويتحفهم بهداياه، وكان يظهر فيما عدا ما تقدم الشغف الشديد بمعاشرة العلماء والصالحين.

خطة القبض على الشريف غالب

وكان الشريف غالب يقابله مرتين فى الأسبوع زائراً ومتفقداً، ثم قلل زيارته شيئا فشيئا مستصحبا معه فى كل زيارة بضع مئات من رجاله، ثم انقطعت الزيارات بالمرة فلم يعد يتوجه إليه. وسبب هذا الجفاء أن خلافا ثار بينهما ثائره على جمارك جدة، على أن هذا لم يكن إلا سببا ثانويا فإن غالبا كان قد ناط به الباشا توزيع مبلغ جسيم من المال على المشايخ العرب المجاورين حثاً لهم على تقديم الجمال، وأن يستعمل فى ذلك ماله من السطوة والنفوذ، ولكنه لم يعبأ بهذا الأمر ولم يعن به العناية المنتظرة، لا لأنه كان يربأ بما بينه والعرب من قديم الرابطة، وإنما ليخدع ويخون ذاك الذى يتظاهر بالولاء له

والانحياز إليه. وقد اتصل بمحمد على سر الخطة المدبرة نحوه، ففكر فى وسائل اتقائها ودفع شرها عنه وعن أعوانه، فذهب إلى الشريف غالب مرتين آخذا عليه برفق إغفاله الوفاء بوعده، ولم يكن معه أكثر من عشرين ضابطا، آملا بذلك أن لا يتخذ الشريف حاشية أكثر منهم عددا إذا رد إليه هذه الزيارة. ولم يكن الشريف غالب قد أهمل الاحتياط لوقاية نفسه لما داخله من الشك والريبة، فكان يغلق على نفسه داره، ولا يخرج منها إلا فى أيام الجمعة لأداء صلاتها فى الحرم حيث لا يستطيع أحد أن يمسه بسوء. وكان غالب يسكن بسفح الجبل قصرا وثيق الأركان رفيع البنيان يتصل بقلعة حصينة تحكم المدينة بواسطة نفق تحته، وفيها من الصهاريج المملوءة بالماء والمؤن الوفيرة والذخائر الكثيرة والمدافع (وعددها ثمانية) والحامية (وعدد رجالها ٨٠٠) ما يكفى للدفاع عند الحاجة. وكان العساكر من أهل اليمن والعبيد المسلحين، هذا فضلا عن أن زملاء الشريف فى مكة وخدمه وأصدقاءه من البدو وجنوده فى الطائف وجدة كانوا على قدم الاستعداد لتأييده وشد أزره فى حالة الحصار. وكان

باستطاعته الاعتماد على مؤازرة ألف وخمسمائة رجل فى مكة وحدها، فلما رأى محمد على نفسه فى هذا الموقف لجأ إلى ذكائه فى استنباط حيلة للخلاص منه، فأقنع غالبا بأن يدعو طوسن إلى الحضور لأداء فريضة الحج قبل وصول القوافل تقية الزحام، فبرح طوسن جدة. ففى مساء ٦ ذو الحجة الموافق أول ديسمبر دخل مكة، فكاشفه أبوه ليلة وصوله بما نواه نحو الشريف، ثم أمر فحضر فى الحال مئة عسكرى فوضعوا فى الحجرات المطلة على صحن دار طوسن. وكان الأدب المرعى يقضى بأن يخرج ليتلقى هذا الزائر، وإغفال العمل بهذا الأدب يعد مواجهة بالعداء، فلما كان صباح اليوم التالى برح الشريف داره فى نفر قليل ليقدم فروض تهانئه إلى طوسن باشا، وتوخى الحضور فى البكور لكيلا يتوافر الوقت لنصب المكائد له، فبعد أن تعاطى القهوة أشار طوسن إلى الحاضرين بالانصراف، فنزل حراس غالب إلى صحن الدار، ولبث يتفاوض مع زائره نحو عشر دقائق أمر بعدها بإحضار شراب مرطب إليهما، وكان هذا الأمر إشارة متفق عليها بالقيام بعمل معين. وهمَّ الشريف

بعد تعاطى الشراب بالانصراف، فبرز له عابدين بك أحد كبار الأرنؤود من الحجرة المجاورة فاعترضه ودعاه إلى تسليم جنبيته، وأعلنه بأنه صار فى أسره، فلم يبد غالب مقاومة ما، واعتذر طوسن بأن ما يفعله معه إنما هو بأمر شاهانى، وأن ليس هناك ما يخشاه على حياته، لأن والده سيتوسط له لدى الباب العالى، وأنه لن يصيبه مكروه، فلما سمع الشريف هذا القول تقدم نحو النافذة وأمر رجاله الذين بصحن الدار بالانصراف إلى منازلهم، قائلا لهم أن ليس هناك مايبعث على الخوف بشأنه، وانطلق أحد أتباعه ليخبر بالحادث أولاده وعبيده الذين كانوا معتصمين بالقلعة تأهبا للدفاع إذا مست إليه الحاجة، ثم ذهب إبراهيم أفندى مهردار الباشا ليطلع الشريف غالبا من طرف الوالى على الخط الهمايونى القاضى باعتقاله وإرساله إلى الآستانة، فأجابه الشريف بقوله: إن الله هو الحكم العدل، وأنه إذا كان رجل مثله قضى حياته كلها فى تأييد عرش السلطان والإخلاص له فإنه لن يخشى الوقوف أمام هذا العرش، وبناء على ما وعد به من حسن المعاملة كتب إلى أبنائه يحضهم على السكون والسلم والإقرار للباشا

D:\كتب\الوهابية\٢٠doc.

بالطاعة. ولقد قصدوا إليه يوما، ففيما هم بالطريق إذا بعابدين بك مقبلا فقبض عليهم جميعا وسجنهم. وفى اليوم التالى استولى العسكر على قلعة غالب، ولاذ بعض حاميتها بالعربان المجاورين، وانضم البعض الآخر إلى الوهابيين. وبث الوالى العيون والحراس فى جميع المنافذ ليمنعوا النساء من الفرار خيفة أن ينقلن معهن شيئا إلى الخارج، ونيط بالقاضى وأحد ضباط الوالى وبعض الكتبة حصر أملاكه وآثاثه وأمتعته وجواهره، فباشروا هذا العمل، ولكنهم لم يعثروا على الخزائن التى تواتر على الألسنة أنه يكنز فيها أمواله الجسيمة التى جمعها أثناء قبضه على زمام الأمور، أى: فى مدة ثمانية وعشرين عاما، ببخله وجشعه وابتزازه أموال الناس بغير الحق، وفرضه الضرائب الفادحة عليهم، وجبايته الغرامات مضاعفة عن الجرائم الصغيرة والهفوات التى لاتقابل بغير الإغضاء أو العفو.

والراجح أن سفينة من السفن الكثيرة التى يسيرها باسمه فى الخليج الفارسى نقلت أوفى شطر من هذا المال إلى الهند الشرقية أو بومباى التى يرتبط بها بروابط

التجارة والمعاملات منذ زمن قديم. أما ما ضبط عنده ووقع تحت الحصر فقد بلغ٩١٠٠٠ محبوب بندقى، و٢١٠٠٠ ريال، ومقداراً وافراً من الجواهر واللبن والأقمشة والبضائع المختلفة الأصناف والأشكال، ولقد حملت هذه الموجودات على متون الدواب بحراسة فرقة من الدلاة تحت قيادة مصطفى بك، فتألفت من ذلك قافلة كبيرة أخذت سمتها فى الحال إلى القاهرة.

معاقبة مصطفى بك

وكان الغرض المقصود من رجوع هذا القائد إلى مصر معاقبته على خذلانه فى قتال المرأة غالية، ولأنه حينما كلف بإخلاء دار الشريف غالب من أهله وقرابته وخدمه استعمل معهم الشدة والغلظة. وكان من بين النساء اللائى أخرجهن مائتا امرأة من صنف الحبشيات، أما زوجته فقد عادت إلى دار والدها السيد محمد نقيب الأشراف، وقد بعث محمد على إلى بيته من يعزيهم على ما نزل بهم من المصاب، ويعلمهم بأنه رتب لهم المرتبات السنوية ليعيشوا بها، ثم اختار للشريف غالب خلفا وهو

يحيى بن سرور أخيه. وكان يحيى رجلا جليل المقام عظيم الاعتبار، ولكن محمداً علياً لم يخصه بهذا المنصب إلا لأنه كان منذ زمن طويل يناصب عمه العداء. وقد رتب له معاشا شهريا عشرين كيسا.

ولم يلبث الشريف غالب أن أرسل مخفورا، أى: محروساً، إلى جدة. ولم يؤذن له بأن يأخذ معه شيئا من المتاع، فلم يكن يحمل إلا الثياب التى كان يلبثها ساعة قبض عليه. ويظهر أن الحراس الموكلين بخفارته أرادوا تخفيف أعبائها عنه فسلبوه نطاقه ورقعة شطرنج جاء بها لتزجية الوقت فى اللعب مع أحد خصيانه، وكان قد استصحب من هؤلاء الرجال– إذا صح أن نسميهم كذلك– إثنى عشر خصيا، وأخذ الشريف غالب يروى أثناء الطريق على كنج أغا كبير الدلاة أنه فى ليلة القبض عليه ألحت ابنته عليه فى عدم الخروج لأنها رأت مناما توقعت منه الشر له. وبقى الشريف ومن معه بجده بضعة أيام ثم سافروا فى سفينة إلى القصير فوصلوا يوم ٤ ديسمبر ١٨١٣ إلى القاهرة، وكان نساؤه قد وصلن إليها من قبل عن طريق السويس، فحيته المدافع بطلقاتها، واستقبله

كيخيا بك الوالى والسيد محمد المحروقى بمظاهر التبجيل والتكريم. وقد دعاهما الشريف يوما إلى تناول الطعام على مائدته، فقال لهما فى حديثه: (كنت معتقدا أن محمداً علياً سيدبر ضدى مثل هذه المكيدة، ولكننى لم يخطر قط ببالى أنه سيعجل بها إلى هذا الحد).

وكان الوالى قد عامل غالباً بادىء ذى بدء بشىء من الشدة والعنف، ثم تغلبت عليه فطرة الكرم والمعروف، فأمر كيخياه بأن يرخى له العنان حتى تمكن أحد أبنائه من الفرار متنكرا، فجىء به من حلوان التى أدرك فيها إلى السيد محمد المحروقى، فوضع كيخيا بك عليه الرقباء وشدد المراقبة على أبيه وأخيه. ويذكر عن عبد الله بن سرور أحد أبناء عم الشريف غالب- وكان مسجونا بمكة ثم جىء به إلى القاهرة- أنه حاول الفرار كذلك على أثر وصوله إليها. على أن محمدا عليا لم يعامل الشريف وأبناءه بهذه المعاملة إلا فى دائرة الحقوق المخولة له بمقتضى الفرمان السلطانى الذى ترك له حرية التصرف فى الشريف، إما بإبقائه قابضا على أزمة الحكم فى مكة، وإما بإبعاده عنها. وقد ألقى نظرة من نظراته إلى صحفه

السابقة فى خدمة الإسلام والمسلمين فالتمس من السلطان العفو عنه، فورد عليه بالحجاز على يد أحد القابجية الأمر برد الأملاك التى صودرت إليه، ولم يقف محمد على باشا عند هذا الحد بل وافاه من ماله الخاص بخمسمائة كيس، وتخير له الإقامة بسلانيك.

نفى الشريف غالب

فسافر الشريف غالب إليها مع أحد أبنائه لوفاة الثانى فى معتقله بالأسكندرية، ولم يعش الشريف غالب وأعضاء أسرته بالبلاد الأجنبية أكثر من أربع سنوات بسبب اختلاف الإقليم والحنين إلى الوطن، والحزن على ما فقد من الجاه والكرامة، فإن هذه العوامل أتلفت صحته وحفرت له من تحت قدميه القبر الذى أهال ترابه عليه طاعون سنة١٨١٦.

فتنة لطيف وإعدامه

وكان لعارف أفندى- أحد كتبة الأسرار فى الديوان- مملوك يدعى لطيفا فأهداه إلى محمد على باشا، فأكرمه الوالى وأفاض عليه الخيرات والنعم، وعهد إليه بمفتاح

خزنته، ثم اختاره لمرافقة إبراهيم باشا فى سفره إلى الآستانة حين نيطت به مهمة تقديم مفاتيح مكة والمدينة إلى السلطان، فأنعم عليه هذا بالباشوية ذات الذنبين، فانتفخ كبرياء وصلفا، وانفتحت فى وجهه أبواب المطامع، فلما عاد إلى مصر أذاع على الملأ أنباء بوفاة محمد على، واستمال إليه بعض العساكر بما كان يبذله من العطاء، وجعل داره ملتقى الندماء يتذاكرون علنا فى شؤون السياسة، فحامت حوله الشبهات، وتطابقت الآراء على أنه طامح إلى السيادة والحكم فى البلاد.

واشتهر أن شيخا كان قد عمل استخارة قال له فيها: إنه سيرقى إلى أعلى المناصب، فلما وقف كيخيا بك الوالى على حقيقة الحال أمر بذلك الشيخ فألقى فى النيل، وسيق لطيف إلى الجلاد فرمى عنقه.

محمد على والإصلاح بمكة

لم يكن هذا الحادث وأشباهه كل ما اهتم به محمد على أثناء وجوده بمكة فلقد صرف كثيرا من جهوده فى مصالحة أهل الحجاز واستمالتهم إليه بتوزيع النقود

والغلال، وتخفيض الرسوم الجمركية التى فرضها غالب على الواردات، وإلغاء الضرائب والمكوس الأخرى التى أبهظ هذا الشريف ظهور الأهلين بها، ومعاقبة كل من يعتدى عليهم بالظلم والإهانة، والنظر بعين الإنصاف فيما يقدم إليه من الشكاوى. وبالجملة فقد أخذ يناصر العرب وشد أزرهم، فقلت بالتدريج أسباب الشكوى والتذمر، وامتد رواق العدل، ولم يقتصر على ما تقدم من جلائل الأعمال بل اهتم بجعل ثغر جدة المستودع الأكبر لذخائر الجيش ومؤنه، ورتب الوسائل الكفيلة بنقلها إلى الداخل على أحسن حال، واستأجر من إمام مسقط عشرين سفينة لمدة سنة، ورتب للعربان الموكول إليهم حفظ الأمن فى الطريق الرواتب الشهرية، وأقام الحاميات العسكرية فى الجهات الأكثر تعرضا من غيرها لخطر المداهمة.

حملة طوسن إلى ترابه

ثم سير ابنه طوسناً فى ٥٠٠٠ راجل و١٠٠٠ فارس وستة مدافع إلى ترابه التى أصبحت قاعدة لإجراءات العدو منذ اليوم الذى تراءى لسعود الوهابى فيه أن يعدل

عن الزحف على المدينة، وقام الوالى بنفسه من مكة قاصدا (العميلة) ليجعل فيها فرقة احتياطية من الفرسان، فقصد طوسن إلى الطائف حيث أنشأ المخازن والمستودعات للجيش، ثم إلى كلاخ فترابه، فوصل إليها بعد عناء شديد بسبب ما لقيه من عنت شيخ العربان ودليلهم المسمى الشريف راجح، فإن هذا الرجل لم يلبث أن انشق على المصريين وعاد لقتالهم فى سهل (بسل) فى حشد حشيد من الوهابيين. وكانت المؤن عند وصوله إلى ترابه قد نفدت عن آخرها، فاضطر إلى تغذية عساكره بنخاع النخل، ثم عقد مجلسا من رؤساء جنده تقرر فيه الإحجام عن الهجوم والارتداد إلى الطائف، فرفع طوسن الحصار ليلا، فسار الوهابيون فى مطاردته وغنموا منه مدفعين، ولكنه لم يلبث أن استردهما بعد قتل خمسين رجلا منهم، فأرسل من الطائف فيما بعد إلى والده تقريرا بالأسباب التى استدعت ارتداده. وكان محمد على يشعر بما هنالك من الحاجة إلى تسكين الخواطر واستفزاز الهمم، فخاطب قواد الجيش بما يلى: (تحققت أن الخذلان الأخير لا ينبغى أن يعزى إليكم بل إلى العربان الذين

ستلاقيهم عقوبتى. وليس عندى ما يحملنى على الشك فى بسالتكم وحسن سلوككم الذى استحق منى جزيل الثناء، والواجب عليكم أن لا تتركوا لليأس سبيلا إلى أفئدتكم، فإن الحرب أدوار، فيوما تجىء بالنصر ويوماً بضده. واعلم أن نفاد المؤن اضطركم إلى الأوبة إلى الطائف، وسيلقى الخائن جزاء خيانته).

تأديب عربان اليمن

وكان عربان اليمن يناوشون المراكز العسكرية المتفرقة ويؤذونها، فرأى محمد على لتأديبهم وزجرهم أن يرسم خطة جديدة يحول بها الأنظار من مكان إلى مكان، فعهد إلى والى جدة بقيادة ٢٠٠٠راجل و١١٠٠ فارس، وجهز أسطولا من السفن الخفيفة لحمل الذخائر، فبعد مناوشات قليلة وصلت الجنود قرب قنفذة بدون أن يسفك دم، واستولت عليها فى ١٤ مارس ١٨١٤ وكان يحتلها منذ خمس سنوات (طامى) شيخ عرب العسير المعروفين فى جنوب مكة بشدة البأس والمشايعة للوهابيين، فلما وصل نبأ هذا الفوز إلى محمد على باشا كتب إلى والى

جدة بتحصين الموقع ووضع حامية فيه واستئناف الزحف، ولكن حدث أن فرطت، أى: سبقت وعجلت، غلطة ذهبت معها هذه الاحتياطات كلها هباء منثورا. ذلك أن بلدة قنفذة تنقصها مياه الشرب ويجلب أهلوها الماء اللازم لمرافقهم البيتية من مكان على مسيرة ثلاث ساعات منها، فكان من الواجب إقامة الاستحكامات حول آبار هذا المكان مع تأمين الطريق الذى بينها والبلدة بخط من الأبراج أو البطريات. ولم يدرك والى جدة أهمية هذا الاحتياط فاقتصر على تخصيص ١٥٠ألبانيا لحراستها، فاستطاعوا منع قطعان الأغنام عن ورودها ولكنهم لم يستطيعوا رد الأعداء عنها حينما داهموها.

المجزرة الوهابية بقنفذة

وقضى المصريون شهراً فى قنفذة من غير حراك، فلما كانت أوائل مايو فجأهم جيش من الوهابيين مؤلف من ٨٠٠٠ مقاتل بقيادة طامى فقاومهم حراس الآبار حتى المساء ببسالة وثبات، ثم انسحبوا إلى داخل الأسوار فلم يجدو حاكمهم لأنه آثر– على البقاء فى هذا المأزق

الحرج، والتعرض فيه للأخطار المهلكة– النجاة بنفسه فى سفينة، تاركا جيشه كالقطيع بلا راع. وكان الجنود من مشاة وفرسان ورؤساء ومرؤوسين قد روعهم فرار قائدهم، فانقضوا على القطائر الراسية (١) وتزاحموا على ركوبها التماس النجاة. والذين منهم تعذر عليهم النزول فيها وكانوا لا يعرفون السباحة فقد فتك الوهابيون بهم، ومن لم يمت بصوارمهم البتارة مات غرقا، أو بحد السيف أيضا حينما أدركهم أولئك الأعداء وهم فى القطيرة أو على الأخشاب فإنهم مازالوا بهم حتى أفنوهم عن آخرهم، وصبغوا ماء البحر بدمائهم، وقد غنم الوهابيون فى هذه الحادثة ٤٠٠ حصان، وعددا عظيما من الجمال، وقدرا وافرا من المدافع والأمتعة. أما الذين نجوا فى السفن فقد مات أكثرهم جوعا وعطشا أثناء الطريق، ومما يروى عن سفال نفس ذلك الحاكم وخسة طبعه أنه كان لا يغسل يديه إلا بالماء العذب، بينما كان العطاش يتلهفون على قطرة منه ويلهثون كما تلهث الكلاب. ومثل هذه

(١) القوارب التى تشد على نسق واحد.

التهمة كان محمد على باشا لا يترك مرتكبها من غير عقوبة، ولهذا نرجح أن تكون مفتراه على من أسندت إليه، كما كان لا يحرم من المكافأة مستحقها. ولقد كافأ اثنى عشر من الجنود قضوا ليلة الهجوم فى الدفاع عن البلدة بأحسن ما يكافأ به الأبطال المخلصون.

ومما ضاعف المصاب وزاد فى الأوصاب أن الأمراض الوبيئة كالحمى المتقطعة والدوسنطاريا والأيدروبيزيا وغيرها من الأدواء التى يرجع سبب انتشارها إلى فساد الماء والهواء، أن العربان أخذوا يعيثون فى الأرض الفساد فقطعوا الطرقات على السابلة، ودهموا القوافل فلم تستطع إحداهن الذهاب إلى جدة ولا الإياب منها مالم يكن عليها العدد الكبير من المحافظين، وانتهى الأمر بالوهابيين إلى حصر الجنود المصرية بمكة وما يلى ضاحيتها إلى مسافة بضعة فراسخ منها.

محمد على ومكارم الأخلاق

وكانت حالة الجيش فى الحجاز تبعث على القنوط، ولا تدع مجالا للأمل، غير أن محمدا عليا كان ماضى

العزيمة لا تزلزله الحوادث، فلقد بعث يستنجز كيخياه بالقاهره إرسال المدد الذى طلبه قبلا وهو ٧٠٠٠ مقاتل و٧٠٠٠ كيس، وعهد إلى الشريف يحيى بمهمة فيما وراء الجبال، وأرسل معه مالا يحصى عدده من رؤوس الأغنام والجمال، واستدرج فى الآن نفسه إلى الاستظلال برايته القبائل التى لم تخضع له بعد، وعامل الأسرى بالكرم والتسامح، فأطلق سراحهم يروحون ويغدون بحسب مشتهاهم على أن يجتنبوا الوقوع فى مثل ما أوجب اعتقالهم، وحالف عربان هذيل وثقيف وبنى سعد وعتيبة وكلها من القبائل المطنبة بين مكة والطائف، ثم قصد إلى الطائف لا ليتمتع بمناخها الحسن وهوائها النقى وإنما لتوكيد الروابط معهم. ولقد حضر للقائه لفيف من مشائخهم فى نحو خمسمائة من رجالهم فأهدوهم ما لا مطمع بعده من الثياب والنقود، وأجرى عليهم من الأرزاق والمرتبات ما يعدل ضعف مرتب الجندى المصرى. وكان يصغى إلى اعتراضاتهم ويحتمل انتقالهم الفجائى من حديث إلى حديث بصبر وهشاشة جذبت إليه أفئدتهم. وجاءه يوما رجل من عتيبة فلما دنا منه تناول

لحيته بيده مغتبطا وقال: (كنت هجرت مذهبى الأول وهو المذهب الصحيح مستمسكا بمذهب الوهابى الخارج المبتدع والآن اعتنق مذهب محمد على) فأجابه الباشا: (إنى أود أن تبقى مبتدعا ثابت اليقين فى ابتداعك) وكان الشريف راجح- الذى ذكرنا أنه انضم إلى الوهابيين- قد عين على أثر انضمامه شيخا لمشائخ الحجاز، ولكنه انتقض عليهم وعاد إلى موالاة الوالى الذى قلده قيادة العربان الموالين له ليستفيد بجاهه ونفوذه بين القبائل العربية.

وفاة سعود زعيم الوهابية

وورد فى الأثناء نبأ من الأهمية والخطورة- حيث ترتب عليه تغيير محسوس فى طبيعة القتال وخططه ونتائجه- ألا وهو وفاة سعود بالدرعية عاصمة بلاده فى الثامنة والستين من عمره يوم ٨ جمادى أول ١٢٢٩ الموافق ١٨١٤. وكان معروفاً بالبسالة والهمة والكرم، فلما توفى خلفه عبد الله ابنه الأكبر على زعامة الوهابيين.

D:\كتب\الوهابية\٢٠doc.

حال الجيش المصرى

وكانت الجنود المصرية موزعة وقتئذ فى الحجاز كما يلى: ٤٠٠ راجل فى الطائف بقيادة محمد على باشا، و٣٥٠ بين المدينة وينبع بقيادة طوسن باشا، و٢٠٠ ألبانى فى مكة بقيادة إبراهيم أغا مهردار الوالى، و١٥٠ من العربان بقيادة يحيى، و٤٠٠ فى المدينة بقيادة ديوان أفندى، و١٠٠ فى ينبع، و٢٠٠ فى جدة، و١٠٠٠ فى كلاخ بقيادة حسن باشا، وكان قد وصل حديثا من مصر، و ٤٠٠ من الدلاة، و١٢ من الأرنؤود بقيادة عابدين بك أخى حسن باشا وكان قد وصل معه من مصر بحرا واشترك معه فى حفظ النقط الأمامية الواقعة على مسيرة أربعة أيام من جنوب الطائف نحو أراضى زهران، حيث يقيم بخروج شيخ عربان غامد وهو أكبرالمعادين للمصريين، وبهذا أصبح الجيش المصرى المؤلف من٣٥٠٠ جندى مشتتا فى جميع الأراضى، ولا يوجد منه بالقطر المصرى نفسه سوى ١٥٠٠٠ فقط، وكان الغرض الذى يرمى إليه بتبديد تلك القوة ونشرها فى كل مكان إيهام الأعداء بكثرة العساكر المصرية، وأنهم لا قبل لهم

بهم، على أن الجيش الحقيقى المؤلف من ٤٠٠٠ عسكرى يعززه ٤٠٠ من العربان كان كافياً إذا كان المراد منه الذب عن الحرمين، وإدخال البلاد المجاورة لهما فى الطاعة، ولكنه لم يكن كذلك إذ كان القصد منه قهر الوهابيين.

وكان من أهم ما أضر بالإجراءات الحربية وأقام فى طريقها العقبات قلة الجمال اللازمة للنقل، فإنه منذ الشروع فى محاربة الوهابيين نفق من هذه الحيونات ٣٠٠٠٠ رأس، على أن هذا لم يحجم بالوالى عن استعارة ٥٠٠ جمل من عربان قبيلة (حرب) لنقل الذخائر بين جدة والطائف. وكان ينتظر أن يصل إليه منها عدد عظيم بواسطة القوافل الواردة من سنار ودمشق. وكان إبراهيم باشا قد حصل من جهة أخرى على مقدار منها بواسطة قبائل صحراء ليبية لنقل أمير الحج المصرى إلى الحجاز، وكانت حامية الطائف لامؤن عندها، فكانوا كلما وصلت القوافل بشىء من الغلال وزعوه على الجنود بدون ادخار شىء فى المخازن، وكان الجندى فى النقط الأمامية ككلاخ وزهران لا يستطيع طحن القمح الذى وزع عليه،

D:\كتب\الوهابية\٢٠doc.

فكان يصحن ما يكفيه منه يوميا بين حجرين، ثم ينضجه فى الرماد، وفى هذا الوقت شرع عربان اليمن لسوء الحظ يوالون الهجمات على المصريين، فسير محمد على إليهم فى إقليم زهران جيشا بقيادة عابدين بك الذى استولى عليه بعد قتال يومين وطرد منه السكان واعتقل فيه الأسرى. وكان الوادى الفاصل بين اليمن والحجاز الأعلى كثير الخيرات، فكانت فيه الفواكه والأعناب وغابات اللوز وعيون الماء العذب النقى، فكانت هذه المزايا فى مثل تلك الظروف كالكنز الثمين، ولكن الزعيم الأرنؤودى أبى إلا التدمير والفساد فى أرض لا يقل امتدادها طولا عن أربعين ميلا، فإنه ليتقى وبال الهجوم عليه أتلف ودمر كل ما خالله ملائما لسير الجيوش المنظمة. وبالجملة فإنه بسوء تدبيره وقصر نظره فى العواقب حفر حفرة عميقة فى المكان الذى كان يجب أن يعتبره بالنسبة لحالته كأرض المعاد بالنسبة لبنى إسرائيل(١)، وقد اضطر على أثر هذا التخريب إلى بث

(١) يدعى اليهود أن فلسطين هى أرض المعاد، وأنها تفيض لبناً =

فرسانه بكل مكان فى طلب المؤن والأغذية، فكانت النتيجة أن دهمه العدو فى نقطته التى لم يعن بإنشاء الاستحكامات حولها، ولا بوضع الحراس عليها اعتقادا منه بأن الصحراء التى بتخريبه إياها بدلت من حالها بحال ستكون حصنا منيعا. وبيان ذلك أن بخروجاً انقض بعربانه صباح ذات يوم على المعسكر المصرى، وحاول طامى أن يقطع بجيشه المؤلف من ٣٠٠٠ وهابى خط المواصلات بين مشاة عابدين بك والفرسان، إلا أن هؤلاء اخترقوا صفوف العدو لإدراك إخوانهم والانضمام إليهم، وتمكن المشاة من صد الهجمات واستولوا على (منصيرة) فلم يفت هذا الفشل فى عضد الوهابيين، ولم يثنهم عن عزيمتهم فعادوا فى حشد أعظم من الأول فحاول عابدين بك التماس طريق بين المهاجمين للخلاص من حصرهم، إلا أن بخروجاً قام بحركات حربية أراد بها غير ما يضمره، فاستدرجه بذلك إلى الحزن حيث نصب الكمائن

= وعسلاً، وقد عملت الوهابية شيوخاً وأمراء على تثبيتهم فيها، وطرد أهلها منها، وقد بينا ذلك فى الكتب السابقة.

والشراك، فلما وصل المصريون إلى هذا المكان أصلوا من البنادق بنار حامية انتهت بها تلك الخدعة.

أما الروملليون- وكان قائدهم أنشط قائد للباشا فى الحجاز- فقد قاوموا مقاومة اليائس، وأصاب الأرنؤود شىء من الخبل والاختلاط فتركوا ذخائرهم وخيامهم ومدافعهم، وحمى حسين بك رئيس الدلاة انسحابهم فصان الجيش بذلك من التلاشى، فإن عدد القتلى بلغ ٨٠٠ من المشاة و٨٠٠ من الفرسان، واقتفى بخروج أثر المنسحبين يوميين متتاليين بليلتيهما، فلجأوا إلى بلدة (لية) ، وتلقى عابدين بك الأمداد من الطائف وكلاخ، ولكن فريقا من عساكره انشقوا عليه إذ رأوا أن من المجازفة التى لا فائدة منها بالحياة إلقاؤهم بأنفسهم فى التهلكة، وانصرفوا قاصدين إلى الطائف.

محمد على ينقذ ولده طوسن

أما الأعمال التى تولاها الوالى بنفسه فقد ظهرت منها بوادر النجاح إذ عادت الصلات التجارية بسببها مع موانى الخليج العربى إلى سابق عهدها، وتوافدت عليه

القصاد من الشريف حمود أبو مسمار وإمام صنعاء، ووجه إلى ابنه طوسن باشا ٤٠٠ من العربان الذين كان إبراهيم باشا قد استجاشهم فى ليبية، وعهد إلى بقيتهم مهمة الاستطلاع والهجوم فى جهات متعددة. وكان لكل فارس منهم جواد أصيل وجمل يحمل مؤونته وذخيرته وبندقية وطبنجتان. وكان الأعداء يخشون بأس هؤلاء العربان لبسالتهم وعلمهم بأساليب حربهم، ولكونهم إذا خرجوا للقتال لا يعودون منه إلا بأكاليل الانتصار. ولقد أوغلوا مرة شرقى ترابة متخذين عربان الناحية أدلاء لهم فغنموا من الوهابيين ٨٠٠٠ رأس من الضأن.

ولما اقتفى بخروج وطامى أثر عابدين بك لم يصدهما عنه سوى أسوار الطائف. فضيقا عليها الحصار وخيف على طوسن باشا أن يصيبه من جراء الحصر أذى، فسيرت سرايا الحاميات إليها لاستنقاذها. ورأى محمد على أن الأفضل له الانقياد لما كان يوحيه إليه وجدانه الأبوى، فعجل بمبارحة جدة ممتطيا جوادا وكان مقيما بها وانطلق فى طريق الطائف لا يصحبه غير عشرين جنديا، فلما وصل إلى قمة جبل (خراع) استكشف معسكر العدو

ووقف على سر تدابيره الحربية. وكيفية ذلك أن حراسه قبضوا على وهابى يشتغل بالصيد والقنص فسأله الوالى عن مواقع المحاصرين وتدبيراتهم فأعجبته صراحته فى جوابه، فأتحفه بهدية ثمينة آخذاً العهد عليه أن لا يفشى ما كان بينهما إلا فى صباح الغد، وأن يوصل إلى حاكم الطائف وريقة كتبت برسمه، فلما أقسم الرجل أطلق صراحه، وكان الليل قد أرخى سداله فتعشى محمد على ودخن التنباك ثم نام. ولم يخس حامل الرسالة فى يمينه إذ قام بما عهد إليه على أحسن مايرام. وكانت الرسالة تحتوى على الكلمات الآتية : (إنى الآن بجبل خراع فهلم إلىَّ) فطفر، أى: قفز، طوسن باشا سرورا بتلاوة هذا الأسطر، وأمر بإطلاق المدافع إعراباً عن سروره، ثم امتطى جواداً وسار برجاله نحو المكان الذى كان والده موجوداً به، فلما سمع الوهابيون دوى المدافع، ورأوا منظر الجنود وهى خارجة من المدينة اعتقدوا صدق ما أبلغهم الوهابى إياه من أن الوالى على وشك الوصول فى طليعة جيش عرم لاستنقاذ الطائف، وخافوا الوقوع بين نارين فعجلوا بالانسحاب الذى كان الباشا كلما حرك

سيرته ضحك، وقال: إنه تغلب على العدو بدون أن يطلق بندقية ولا مدفعاً أو يجرد سيفا. وانصرف محمد على وابنه بعد ذلك إلى مكة فجدة، وصرفا كل عنايتهما إلى تموين الحاميات العسكرية بالبلاد الحجازية.

وكان ابن مدين شيخ عربان حرب قد قصد إلى المدينة لمقابلة ديوان أفندى فى أمر ما، فقابله بالمجلس وجرت بينهما محادثة فاه ديوان أفندى فى خلالها بعبارات تنم على الفخر والصلف. وكان الشيخ عظيم الجرأة والقحة فقال له : [إلزم الصمت لأن هذا السيف (ثم ضرب على سيفه بيده) هو الذى فتح للمصريين أبواب الحرم] فحنق ديوان أفندى، وأمر فى الحال بشد وثاقه وتفتيشه، فوجدت معه كتب كثيرة تدل على تواطؤه مع الوهابيين، فاستند عليها فى التخلص منه بإعدامه إياه بيده فى أعماق السجن، ولما اتصل بقبائله وعربانه نبأ قتله قطعوا الطريق على القوافل، وتعدوا على مراكز الجنود المصرية، فلما أيقن محمد على فداحة خطرهم وسوء مغبة فتنتهم عقد النية على قمعها تقية الوقوع فى القحط بانقطاع الوارد، فأطلق لطوسن باشا حرية التصرف، ثم

D:\كتب\الوهابية\٢٠doc.

قصد إلى ينبع فحصل بمساعيه السلمية وسجاياه الكريمة على مالم يكن يحصل عليه لو استعان بالأربعمائة راجل والخمسمائة فارس والمدفعية على تعزيز جانبه وإعلاء كلمته، فلقد استطاع أثناء وجوده فى ينبع وبدر أن يستميل إليه شيوخ العربان ويستدرجهم إلى مخالطته والأنس به، وأهداهم الهدايا الثمينة من السمور والشيلان الكشميرية. وأكد فى تصريحاته لهم أنه يعتبر نفسه ضيفا عند قبائل العربان لا خصما لهم. وبعد أن وعد بعقاب المسىء ومكافأة المحسن سار بجنده قاصدا المضائق وقال: إن كل ما يبتغيه منهم تسليمها إليه. وكان عليها محافظون من العربان آلوا على أنفسهم أن لا يتنازلوا عن شبر منها. فلما لاح لهم طوسن باشا وجنوده أطلقوا الرصاص عليه. فلم يعبأ بهم بل اهتم بنقل خيامه إلى قمم جبل الصفراء وجديدة ونصبها فيهما، وكان هما مخرجا حلق الوادى، فشاد فى كل منهما طابية، ورمم طابية ثالثة بداخل أسوار القرية وجعل بها فصيلة من المشاة ومستودعا للذخائر.

محاسن وفاة ديوان أفندى

ومن محاسن المصادفات أن توفى ديوان أفندى تحت عبء الشيخوخة ومشاق الحرب، فى الوقت الذى كانت صيحات المحتجين عليه من العرب تطالب برأسه، فأبلغ الأمير طوسن إلى العربان نعيه مدعيا أنه أمر بقتله لأنه قتل شيخهم، ففاضت قلوبهم بالفرح، موقنين بصحة هذا القول وتم الصلح بذلك، فضمن المرور لسرايا الجيوش المصرية وتجريداتها، واخترق طوسن الجبل فعلا فدخل المدينة فى أكتوبر ١٨١٤، تتبعه قافلة مؤلفة من ألف جمل محملة بالمؤن للآهلين، وترك فى حناكية بجوار المدينة خاصة فرسانه ليخرجوا صباح كل يوم فى طلب الوهابيين ومناوشتهم بالأراضى الواقعة شمالى المدينة.

حج محمد على وزوجته

وكان موسم الحج قريبا فوصل من الحجاج فى نوفمبر نحو ٨٠٠٠٠، منهم فريق كبير من عظماء الآستانة وأعيانها. وكانت زوجة محمد على الأولى- وهى التى خصها بحظوته وأسكنها القلعة- قد وصلت إلى مصر فى أخريات سنة ١٨٠٨ آتية من الروملى مع

ابنتيها وإسماعيل ثالث الذكور من أبنائها. وكان إبراهيم وطوسن قد حضرا إلى مصر قبل أمهما فى ٧ سبتمبر ١٨٠٥، فلما وردت الأخبار بقرب وصولها ذهبا إلى شبرا لاستقبالها، وحيتها مدافع القلاع عند وصولها، ورافقتها إلى القاهرة ٥٠٠ سيدة راكبات الحمير، وفى مقدمتهن أرملة مراد بك، وقد أرادت أداء فريضة الحج لذلك العام، فوصلت إلى جدة سنة ١٨١٤، وحملت إلى مكة فى عربة مقفلة يجرها اثنان من جياد الخيل، ونقلت أمتعتها إلى مكة على خمسمائة جمل، فكانت هذه الأمتعة من الجلال والفخامة بحيث تليق بالملوك، ونصب صيوانها فى سهل عرفات، فكانت أفخم وأجمل ما نصب فى هذا المكان من الصواوين. وضربت بالقرب منها اثنتا عشرة خيمة لنزول صاحباتها، وكان يحيط بهذه الصواوين سياج من قماش الكتان محيطه ٨٠٠ خطوة، ويقف الأغاوات بباب هذا السياج بملابسهم المزركشة الجميلة. أما الرجال من حاشيتها فقد نصبوا خيامهم حول هذا السياج من خارج، وكان نقش الصواوين وتطريزها وتنوع ألوانها مما يحار العقل فى تصويره ويعجز اللسان

عن وصفه. وعول محمد علىّ على قضاء فريضة الحج فأحرم بشالين كبيرين من الكشمير الأبيض، ثم امتطى جوادا وهو مكشوف الرأس للسعى بين الصفا والمروة، وكان أحد كبار الجند يظله وقتئذ بظلة، وفرح الأهلون بفخامة المحمل المصرى وما أحاط به من مظاهر الأبهة والجلال، وأعجبوا بحسن منظر جنود الحرس. وعلق مائة مصباح كبير فى وادى منى للإرشاد إلى موقع مخيمه، وأنشأ أمام صيوانه حوضين كبيرين ليستقى الحجاج الماء منهما ما شاءوا، وصف اثنى عشر مدفعاً لإطلاق النار، وعلق جثتين لاثنين من العربان سلبا أحد الحجاج ثلاثمائة قرش واثنى عشر جملا. وقد زاره سليمان باشا والى دمشق فى موكب جليل سارت فيه الجنود بالملابس المزركشة بالذهب، وألف وخمسمائة من الدلاة ركبانا على الجياد الصافنات، وستون مدفعيا على الهجن، وبأيديهم المقاليع، وأدى إليه قاضى مكة وكبار تجارها ووجوه الحجاج من جميع الأقطار فروض التعظيم والإجلال، وتشرف رؤساء الجند وكبار القواد بلثم يده. وكانت قافلة حجاج مصر مؤلفة بعضها من رجال الجيش

وبعضها من المصالح التابعة له، فطلب الوالى منهم مصادرة الخيول والجمال، فبلغ ما توافر عنده من الجمال وحدها ١٢٠٠٠ رأس، وأراد بهذه المصادرة التعبئة للحملة المقبلة.

التأهب للقتال

ولما حشد جميع قواه بين مكة والطائف، وتفقد مخازن الذخيرة والميرة والعلائف، وعين المراكز والنقط لإقامة الجند، ورتب مدفعيته المؤلفة من اثنى عشر مدفعا، أذاع فى الناس عزمه على قيادة الجيوش، فأيقن العساكر بالظفر، ولكى يبقى هذا الاعتقاد مستقرا فى القلوب.

جىء من وادى فاطمة بحمل من بذور البطيخ طافوا به شوارع مكة وسككها فى موكب عظيم، منادين بأن هذه البذور ستبذر فى موضع بلدة ترابه بعد تدميرها، ولا ريب فى أن الاستيلاء على هذه البلدة كان من الصعوبة بحيث دعت الحاجة إلى اتخاذ هذه الوسائل للحث عليه والترغيب فيه. وقبض فى طريق جدة على ثلاثة عشر من العربان بتهمة الارتباط فى الخفاء بالوهابيين، فرميت

أعناقهم على مرأى جمهور عظيم من الناس. ولما انتهت التعبئة وجهزت المعدات الحربية، سير محمد على بتاريخ ١٥ ديسمبر ١٨١٥ السرايا من العساكر الأرنؤود بقيادة حسن باشا للانقضاض على جناحى العدو ومؤخرته طبقا لخطة مرسومة، وتأهب محمد على بعد ذلك بتسعة أيام للانضمام إليه فى ١٢٠٠ فارس، فإذا بالأخبار الواردة تفيد وصول جيش من الوهابيين إلى قنفذة متجها نحو جدة، وعلم أهل هذا الثغر بذلك فانذعروا وتروعوا لقلة الماء فيه منذ أشهر واستحالة الحصول عليه إذا انقطعت المواصلات مع مكة، وضاعف الرعب والحزن أن ارتفعت أسعار المواد الغذائية بنسبة الثلث لمجرد شيوع تلك الأخبار، فاضطرت الحكومة إلى الختم على الصهاريج للانتفاع بمياهها عند الحاجة، وألزمت الأهلين بالاستقاء من الآبار البعيدة عن الثغر بثمانية كيلو مترات، ولكن العربان المنوطين بالاستطلاع وضعوا لذلك الفزع حداً، لأن الوهابيين الذين ظن فى بادىء الأمر أنهم فى كثرة من العدد لم يكونوا إلا شرذمة صغيرة جدا من جنود طامى نزلت على مقربة من قنفذة، وأنها ليست من القوة

D:\كتب\الوهابية\٢٠doc.

بحيث تسوغ ذلك الذعر. ووردت على محمد على باشا عقب ذلك بأيام أخبار تفيد إساءة (بخروج) لحلفائه عربان قبيلة (ناصر) بارتكاب الفظائع فى حقهم من قتل ونهب وتخريب، بالرغم من دفاع الأرنؤود عن بلدة (بجيلة) عاصمتهم دفاع الاستماتة واليأس.

ونمى إلى الوالى أن ترابة تتوارد عليها الإمدادات بلا انقطاع، فرأى من الحكمة التعجيل بالزحف. فلما كان يوم ٢٨ محرم ١٢٣٠ الموافق ١٠ يناير ١٨١٥ برح مكة إلى كلاخ، وكان ينتظره بها حسن باشا وعابدين بك وطبوز أوغلو ومحو بك وبونابرت الخازندار والشريف راجح ومعهم من المؤن كفاية شهرين، فوجه الشريف راجحا عند وصوله إلى عتيبة لإمدادها، وكان الوهابيون يضيقون عليها الحصار، وسار بنفسه فى جيش من الفرسان إلى بسل، وكان العدو قد استولى عليها. وقد اتخذ الوهابيون معسكرهم بسفوح الجبال المفضية إلى السهول المقابلة للطائف، وكانت عندهم حيث عسكروا آبار ذات مياه غزيرة جيدة، بخلاف المصريين فقد كانوا مضطرين إلى جلب مياههم من كلاخ محملة على الدواب. وكان عدد

الوهابيين فى الجنوب لا يتجاوز ٢٥٠٠٠ راجل مسلحين بالطبنجات، و٥٠٠٠ هجان، أما الفرسان فكانوا قليلى العدد لأن مناورات طوسن باشا حول المدينة عرقلت حركاتهم وأصابتهم بالفشل. ولم يكن مع هذا الجيش العظيم مدفع واحد، وقد انضم إليه الأبطال المشهورون بالبسالة من زعماء شمال اليمن والسهل الجنوبى الشرقى، وكان الغرض الذى رمى إليه بتوجيه شرذمة منه إلى قنفذة تحويل أنظار محمد على عن المعسكر الأساسى، وقد تمكنوا بهذه الخدعة من اكتساب الوقت لمفاجأة بسل واختيار الميدان الملائم لأساليبهم فى القتال. وقد اعتصموا بأعالى جبالهم لا تبدو منهم حركة إلا لمنع المصريين من نصب بطرياتهم فى السهل.

حيلة محمد على والنصر المبين

ولقد وقعت بين الفريقين مناوشات كثيرة ظهر للباشا منها أن نجاحه لا يكون موفورا ولا موثوقا به إلا إذا أعمل الحيلة على استخراج العدو من الجبال التى اعتصم بذراها، وامتنع على من يرومه فيها، فأرسل ليلا فى طلب

المدد من كلاخ ونصب مدافعه فى المواقع الملائمة، وأرصد ألفين من الأرنؤود على أحد جناحيه، فلما كان فجر اليوم التالى أمر بالقتال، فتقدم القواد كل منهم بجيشه حتى بلغوا بناء على التعليمات الصادرة إليهم إلى منتصف مرمى الطبنجة وأطلقت المدافع قذائفها فى الحال، ثم انثنوا فجأة على الأعقاب متظاهرين بوقوع الخلل والفشل فى صفوفهم، فاعتقد الوهابيون أنهم ولوا منهزمين ورأوا الفرصة سانحة لمطاردتهم والقضاء عليهم، والقبض على محمد على نفسه، مطرحين بهذا الاندفاع وهذا التهور وصايا شيخهم سعود الوهابى ساعة حضرته الوفاة، حيث سألهم أن يعاهدوه على اتقاء القتال فى بسيط الأرض لتفوق أعدائهم عليهم فيه، وقلة خبرتهم بأصوله، فغادروا مواقعهم الحصينة البعيدة المرام، وأطلقوا فى السهل يقتفون أثر المصريين، فلما رأى الباشا نجاح حيلته نجاحا فوق المأمول، وأن الوهابيين قد ابتعدوا عن معتصمهم ابتعاداً يكفل تكليل حيلته بفوز باهر، أمر فرسانه بعد أن رتبهم ترتيبا محكماً بتحويل وجوههم إلى الجهة التى انصرفوا منها، وأن يقابلوا الأعداء وجها لوجه، وما

شرعوا بتنفيذ هذه الحركة حتى لاحت لهم بشائر الفوز. وقد اشترك محمد على باشا فى المعركة فأردى بيده أحد الوهابيين، وكان المشاة المصريون يقومون فى الوقت نفسه بحركة التفاف حول الوهابيين لحصرهم ومنعهم من التسرب إلى الجبال. وكان الشريف راجح قد عاد من قبيلة عتيبة بعد أن أمدها بالرجال والمؤن والذخائر، وانتشر عربانه فى الوادى الذى كان لابد للوهابيين من اجتيازه أثناء انسحابهم، فأوقع الخلل فى صفوفهم. وكان راجح ممتطيا فرسا من كرائم الخيل وبيده رمح فحمل على العدو وحده حملة شديدة وأوغل فى الحملة، فلم يقف إلا بالقرب من خيمة جمعت إلى جودة الصناعة جمال الترتيب وحسن التنسيق، فترجل وغرس أمامها فى الأرض رمحه، ثم وقف يصد عن نفسه بسيفه جمهور المهاجمين، ولبث كذلك حتى أدركه محمد على فأنقذه من هذا الموقف الحرج، ثم سأله بعد أن أشار إلى الخيمة: لمن هذا البيت؟ فأجاب: هو لفيصل بن سعود. فقال الوالى: (لك أن تقول الآن أنه لك لا له). وقد دخله الاثنان فوجدا به ألفى قرش واف. وأرسل راجح فريقا من

D:\كتب\الوهابية\٢٠doc.

فرسانه لمطاردة الهاربين فانضم إليه العربان المجاورون لا لعداوة بينهم والوهابيين بل لالتماس مايسدون به الرمق، وقد تمكنوا من حصر ١٥٠٠ وهابى ضربت أعناقهم جميعاً، واستطاع ابن شبقان منهم أن يشق له طريقا بين صفوف المصريين فى مئة من أعوانه بمعجزة. وقتل (بخروج) وهو أشد زعماء العدو حماسا وتهورا اثنين من الضباط المصريين، وقتل جواده من تحته فتمكن من الاندساس بين الفرسان المصريين، فبعد أن أرغم بالقوة أحدهم على النزول عن جواده امتطاه وفر به، أما (طامى) فلم يستطع أن يعود من المعركة فى نفر قليل من رجاله إلا بعد هول ومشقة، ونادرا ما كان الوهابيون يطلبون الأمان أو الصفح؛ ولهذا أوصى الوالى رجاله بتأمينهم والصفح عنهم من تلقاء أنفسهم، وبلغ عدد الذين أسروا منهم ثلاثمائة. أما الغنائم فتناولت مقداراً عظيما من الخيم والمهمات. وكان مقرراً منح ستة ريالات لكل جندى من المصريين يجىء برأس عدو، فاجتمع بهذه الطريقة ٥٠٠٠ رأس. وعثر فى الجبال على جماعة من أهل العسير، وقد شد وثاقهم لأنهم كانوا ليلة رحيلهم للقتال

أقسموا لزوجاتهم بالطلاق أن لا يولوا ظهورهم للأعداء، فلما نفدت منهم الذخائر ورأوا أنهم إذا رجعوا وقعت هذه اليمين شدوا وثاق بعضهم البعض حتى يأتى العدو فيأخذهم أسرى. وقد قضى محمد على مع عساكره الليلة فى كلاخ، فإذا كانت عينه قد غفت لحظة فإن همته لم تنم، إذ لم تمض أربعة أيام عقب ذلك حتى وصل إلى أسوار ترابة فانسحب منها فيصل بلا مقاومة، ولما لم يجد السكان من يدافع عنهم ويصونهم طلبوا الأمان وقدموا فروض الطاعة، وقد اتخذ الباشا منذ هذا اليوم معسكرا عاما له، وحاول المصريون نهب بعض المساكن وتدميرها واغتصاب النساء الجميلات، فكبح محمد على جماحهم وأوقفهم عند حدهم وألزمهم رعاية الأدب، ثم صرف همه إلى تعزيز الشريف يحيى بقوة من الجنود تحت قيادة محو بك، وكان الشريف يزحف برا على قنفذة فى عربانه بينما كانت الذخائر والمؤن تصدر إليه بحرا من ثغر جدة، وقد عول الباشا تجاه ما أبداه العدو من العجز عن تخطى مواقعه الجنوبية على الذهاب إليه فيها ليلقى الروع والرهبة فى قلوب رجاله، فحمل ما جمعه فى

كلاخ من المؤن والذخائر على ١١٠٠٠ جمل، وهى الجمال التى أصبحت ملك يمينه منذ ضاعف عدد دوابه بما أحرزه من النصر، على أنه رأى قبل ارتحاله أن يخبر بفوزه كبار أهل المدينة كما أخبر به أهل القاهرة والآستانة، وكانت الرسالة التى ضمنها هذا الخبر بتاريخ ٧ صفر سنة ١٣٣٠ وقد قرئت فى المساجد الكبرى بالمدينة، وهى تتضمن شرح الوقائع، وطلب الدعاء له فى الحرم المدنى أمام الضريح الشريف بتحقيق آماله والفوز على أعدائه، وتطهير الحجاز من أدران الخوارج بالقضاء عليهم أجمعين.

الأعراب يطلبون الحماية من الوهابية

واخترق محمد على بجيشه- كما رسمه من بادىء الأمر- أراضى عربان (أكلب) متجها نحو الجنوب قاصدا (رنية) وكان ابن كتنان شيخهم قد أقام حصنا صغيرا فانفتحت أبوابه للمصريين الذين واصلوا السير أربعة أيام حتى وصلوا إلى أرض (بيشة) لبنى سالم، وهم قبيلة ابن شقبان، وكان بها حصنان شادهما سعود الوهابى، وكان

فرسان محمد على معسكرين فى نقطة بالجنوب ذات أشجار مورقة ونخيل باسقة ومعهم مشاة من الأرنؤود بقيادة حسن باشا فأقاموا خمسة عشر يوما بتلك الجهة التى يعتبرها عربان الشمال مفتاح اليمن الشرقى، وأثناء إقامتهم كان العربان يتواردون ضارعين إلى محمد على أن ينصرهم على سعود لأنه ارتكب فى حقهم صنوف الجرائم، وأبهظ عواهنهم بأعباء الكلف، فاغتنم الوالى هذه الفرصة لينال من خصمه بزيادة عدد الموالين له من خصومه، فعزل من ولاهم الأمير الوهابى فى المناصب من صنائعه، ووردت إليه الأخبار هناك بأن طاميا مجدٌّ فى تعبئة الجند لقتاله رجاء الظفر به. فقال الوالى: إنه سيوفر عليه عناء الطريق بذهابه إليه. وقد تحرك فعلا بجيشه متجها نحو الغرب لقتاله فنال عساكره من الجوع والمشاق مالا يوصف، لأن أهل القبائل كان يروعهم منظر الجنود الظافرة يهجرون مساكنهم حاملين معهم ما يملكون من ماشية وأغذية.

ولما بلغ الجنود إلى آخر مرحلة من هذه الرحلة الشاقة وكانوا قد استنفدوا فى الطريق زادهم، ولم يجدوا أمامهم

D:\كتب\الوهابية\٢٠doc.

مايسدون به الرمق سوى لحوم الجمال التى تنوء تحت أثقالها فتشرف على الهلاك.

وقاسم محمد على جنوده هذا الضنك مشاركا إياهم فى هذا الغذاء، وأراد أن يسهل عليهم شراء الغلال لعمل الخبز، فزاد مرتب كل منهم قرشا واحدا، وقضوا أياما استراحوا خلالها من عناء النقلة والارتحال، وأعاد الوالى فيها زمام مشيخة جبل (شمران) إلى الشيخ حسن السلسان مع الحقوق والامتيازات التى أولاها أسرته السلطان سليم الأول قبل ثلاثة قرون بحصر الإمارة فيها.

وقد نفق مائة جواد فى يوم واحد فقلق العساكر لذلك وتوجسوا خيفة، ولكن همتهم لم تثبط لذلك لاستشعارهم بأن تراجعهم إلى الخلف خطوة واحدة يفضى حتما إلى هلاكهم، ونزل محمد على وسائر قواد جيشه عن دوابهم وساروا فى مقدمة جيوشهم راجلين، فكان ذلك مشجعا للمشاة على مواصلة السير بجد ونشاط، ومناهم الباشا بغنيمة عظيمة إذا فتحت اليمن لهم أبوابها، وتلقى بمظاهر الإكرام عليا المضايفى الذى كان من أوثق أركان الوهابيين ثم تركهم ملتمسا العفو من الوالى، فأقطعه قرية

تبعد عن الطائف بعشرين كيلو مترا، وتعذر على العساكر المصريين إمرار مدافعهم خلال الشعاب الصخرية التى تحمى قبائل العسير، فلما وصلوا إلى أراضيهم بعد أن عانوا صنوف المشاق فى ذلك، وكان قد مضى خمسة عشر يوما على ارتحالهم من بيشة فهاجموا قصر (الطور) المشيد على رابية عالية، ويعتقدون اليمانيون أنه أمنع من العقاب الجو.

نصر جديد وغنائم لمحمد على

وكان لطامى فى هذا المكان ١٠٠٠٠ مقاتل، فبرزوا وهو فى مقدمتهم حاثا لهم على القتال فى أبيات حماسية، فلما كان اليوم الثانى نصب المحاصرون مدافعهم فى النقط الملائمة فألزموا الوهابيين الأدبار، واحتل المصريون القصر بعد جلائهم، فوجدوا به صنوفا لاعداد لها من الذخائر والمؤن والأدوات، ومن بينها المدافع التى خسرها المصريون بقنفذة فى العام السابق، وبضعة آلاف من البنادق الجيدة ذات الأنابيب الفارسية القديمة، فبعد أن عين محمد على (ابن مدرى) شيخا على قبائل العسير،

هبط السواحل من الحلوق الصخرية للجبال واتجه منها إلى قنفذة التى كانت الأقوات والأعلاف الكثيرة قد وردت من جدة إليها.

وسيق إلى المعسكر العام فى الآن نفسه اثنان من كبار الأسرى أحدهما (طامى) الذى لاذ بعد الهزيمة بأحد الأشراف فسلمه إلى المصريين، و(بخروج) الذى أسر فى زهران إذ دهمته فصيلتان مصريتان فوقع منهما بين نارين. وجعل محمد على الأسيرين فى خيمتين مجاورتين لخيمته، ولطالما حادث طاميا وانعطف عليه لأنه مع طعونه فى السن وبياض لحيته كان متقد العينين شديد البأس ثبت الجنان فى مصابه.

أما بخروج فقد كان محمد على ينقم عليه تعديه حدود الليقان فيما وجهه من الرسائل، فمن ذلك قوله: (لقد خبرت بنفسك صلابة الوهابيين وعجمت عودهم، فأولى بك إن كنت عاقلا أن تعود إلى مصر وأن تشرب من ماء النيل) وقد انتهز بخروج فى الليل غفلة من حراسه فمد يده إلى جنبية (خنجر) وقطع بها وثاقه، ثم لاذ بالفرار، ولكنه لم يلبث أن قبض عليه بعد مقاومة ونضال جرح

فيهما رجلا وقتل اثنين آخرين، فاستدعاه الوالى إليه وسأله: (بأى حق تقتل عساكرى) فأجاب: (ما دمت مطلق اليدين فإنى أعمل ما تشتهيه نفسى) فقال الباشا: (كما قتلت عساكرى ستقتل أنت أيضا) وفعلا فقد قتل بخروج، وأرسل رأسه إلى القاهرة، ومنها إلى الآستانة، ثم تلاه طامى إذ أرسل أيضا إلى العاصمتين، وفى الأخيرة منهما قطعت رأسه.

وكانت خسارة المصريين فى معاركهم الأخيرة ١٨٠ عسكريا قتلى و٣٠٠ جرحى فيما عدا المرضى وكان عددهم عظيما. وكان التعب قد أنهك قوى العساكر، فرجع معهم إلى جدة حيث أنزلوا بالسفن والقطائر[١] عائدين إلى مصر، وإنما استثنى منهم بضع مئات من الألبانيين بقيادة حسن باشا. وفى ٢١ مارس ١٨١٥ عاد محمد على إلى مكة فقضى بها أياما، قلد أثناءها حسن بك ولاية هذه المدينة وحسين بك قيادة الفرسان، والشريف راجح حامية

(١) القطارة: أن تشد الإبل على نسقٍ، واحداً خلف واحد، والمقصود بها هنا المراكب.

D:\كتب\الوهابية\٢٠doc.

ترابة وبيشه، ثم قصد إلى المدينة فبلغ إليها ١٤ أبريل، وكان فى قوة لا تزيد عن ٤٠ هجانا، وكان ذهابه إليها لغرضين: أحدهما، الوقوف على الأحوال فى شمال الحجاز. والثانى، زيارة روضة النبى ﷺ.

عبد الله بن سعود يحتمى بأهل نجد ويناوش طوسن باشا

وكان عبد الله بن سعود جاسما فى القسيم يرجوا الحيلولة بين طوسن باشا والمدينة، فلما وصلت إليه الأنباء بفوز الوالى- فيما ذكرنا من وقائعه- خشى أن يصيب الدرعية سوء، فعاد من فوره إليها واهتم بصيانتها. فعول طوسن على الذهاب إليه لمقاتلته فيها. وبعد عودة الوالى من حروبة مكللا بالفوز تحرك طوسن فى ٢٥٠٠ فارس وجمع كثيف من العربان الموالية، وأخذ معه ثلاثة مدافع فهجم أولا على عربان (حطين) فى شرذمة من رجاله، فغنم منهم ٥٠٠ جمل استخدمها فى نقل الأزواد، وتحفز أهل قرية (شنانه) للمقاومة فحاصرهم وبعد يومين ألقوا السلاح من أيديهم، ولم ينس عبد الله خلال هذه الحوادث ما يجب عليه باعتبار كونه أمير أمة

وقائد جيش، فبرز إلى عربان نجد بدواً وحضراً ليستجيش منهم، ثم اتجه إلى القسيم بحشوده فنصب مخيمه على مقربة من (شنارة) على مسيرة خمس ساعات من معسكر طوسن، وكان الجيشان يرميان كلاهما إلى أخذ بلدة (الرس) المتصلة بالمدينة يمنة وبالدرعية يسرة، فحث كلاهما المسير إليها فأحرز طوسن قصب السبق بالوصول قبل خصمه إليها واستيلائه فى جنح الظلام عليها، فتقدم المشائخ إليه مقرين بطاعته، فأتحفهم بالهدايا الثمينة، وألبسهم الفراوى والسمور، وأوصاهم بجعل الصلاة يوم الجمعة باسم السلطان. ولم يجد عبد الله تجاه هذا الفشل سوى الهجوم على قافلة تحمل الأزواد من المدينة ورمى رقاب حراسها، ورأى طوسن باشا أن الـ ٢٠٠٠٠ جمل، والـ ٢٠٠٠٠٠ رأس من الغنم التى للعربان المحالفين ستأتى على مافى ضواحى الرس من المراعى الخضراء والكلأ، وأن هذه المدينة تنقصها المؤن، فبادر باتخاذ الوسائل الواقية من المجاعة. ولكى يمنع الوهابيين من البقاء بهذه الجهة هدم بعض القلاع والأسوار، ثم ذهب إلى جهة (الشبيبية) فاحتل عبد الله بن

D:\كتب\الوهابية\٢٠doc.

سعود ورجاله أراضى عربان (عنيزة) البعيدة عنها بأربعة فراسخ (١)، واستمرت المناوشات عشرين يوما بين العربان الحافظين للنقط الأمامية من الجيشين، وكادت آخر مناوشة منها تفضى إلى معركة عامة أو واقعة حاسمة يحتل الظافر فيها الأرض المتنازع عليها.

وحدث أن اشتدت الحرارة اشتدادا جعل أشعتها كسهام نارية ترشق الأبدان، وتعذر لهذا السبب ولما حل بالجنود من التعب الزحف بها إلى الأمام. وأخذ تضييق الخناق على معسكر طوسن يشتد حينا فحينا وأقواته تنقص نقصا محسوسا، فاضطر أن ينقل مخيمه إلى الرس ويرسل منه إلى الهلالية فالبكيرية بعض فصائل جنده لتوافيه منهما بما يسد الخلة. أما أهل البكيرية فتلقوا طالبى ابتياع الأقوات منهم بالرصاص. فلما نمى هذا الخبر إلى طوسن باشا حنق حنقا شديدا، وفرض عليهم حاكماً من طرفه، بعد أن هدم أسوارهم وعامل بمثل ذلك أهالى (شنانة) فإنه بعد أن

(١) الفرسخ: مقياس قديم من مقاييس الطول يقدر بثلاثة أميال، والميل البرى يقدر الآن بما يساوى ١٦٠٩ من الأمتار.

حاصرها أربعة أيام وقتل ٢٠٠ من المحصورين هدم منازلهم وشتت شملهم إذ ظهر له أنهم تآمروا مع أهل الرس على الفتك بحاميتهم المصرية.

المصريون كفرة ومشركون

كان طوسن باشا فى ضيق محرج وكرب شديد لانقطاع الأخبار عن مصر، وقلة الذخائر والأقوات والأموال عنده لدفع مرتبات الجنود، وضعفت ثقته من جهة أخرى بالعربان الموالين لاستيائهم من رؤية الوهابيين ينالون منهم فى كل وقت بالسلب والثلب، حتى أنهم كانوا يصفونهم فى حديثهم بالكلاب وخدم الكفرة والمشركين بدون أن يثأروا لأنفسهم من ذلك الاعتداء الفاضح، دع أنه كان يبعد عن المدينة بنحو ١٠٠ فرسخ تحيط به الأعداء من كل جانب. وكان أحمد آغا خازنداره قد استطاع فى غفلة من الوهابيين مغادرة المدينة فى مدد مؤلف من ٦٠٠ رجل و ٢٠٠ جمل محملة بالأقوات والذخائر وأدوات المدافع.

عبد الله بن سعود يطلب الصلح وطوسن يضع الشروط

وكان عبد الله يرى من ناحيته أنه إذا أسعفته المقادير على الفتك بالجيش المصرى كله فإن النتيجة ستبقى بالنسبة له سيئة على كل حال، إذ لو فرض وتحققت له هذه الأمنية لما وقف محمد على إزاء هذه الكارثة ساكتا، بل كان لابد له من إنزال صواعقه بنجد وسكانها. وكان عبد الله لا يجهل ماعليه مصر من الرخاء وسعة الثروة، وأن فى قدرة محمد على بهذه الوسائل القوية الإكثار من القبائل الموالية، مع إكمال النقص فى جيشه وسد الثلم التى تصدعت بها أركانه مهما اتسعت، وأن مصائب الحروب وكوارثها ستنصب لهذه الأسباب على الحجاز سنوات عديدة مديدة بلا ثمرة منها ترتجى، وأن الكثيرين من أعوانه يترقبون بذاهب الصبر الساعة التى يتاح لهم فيها الخروج عن طاعته. فرأى احتفاظا بمودة القبائل وتمسكا بمحالفتهم التعويل على طلب الصلح، فالتمسه فعلا من محمد على بواسطة وفد قرر أن ينفذه إلى مصر، فوقف بباب طوسن باشا ملتمسا الصفح عنه وقبوله فى

عداد رعايا السلطان، ورعاية أوامره والدعاء له في خطبة الجمعة، وتلقى طوسن من هذا الوفد هدية جليلة من كرائم الخيل والهجن، فأكرمه بتقديم القهوة إليه، وعرض عليه شروطا لقبول الصلح.

منها: العدول عن بدعة المذهب الوهابى، والتعهد بتنفيذ أوامر السلطان. وتوجه موفده إلى الآستانة إذا طلب ذلك منه، وتسليم مفاتيح عاصمته، والاقتصار فى التلقب على لقب شيخ البلد، ورد النفائس التى سلبت من الحجرة النبوية، وضمانة المواصلات للحجاج، والتبعية لوالى المدينة.

فقبل الوهابيون باسم زعيمهم هذه الشروط على شدتها، ونيط بضباط من الجيش المصرى الذهاب إلى مخيم العدو لتلاوتها عليه، وقد قوبل فيه بمظاهر التعظيم والتكريم والتصفيق الحاد والهتاف الشديد، وباليمين من الجميع أن يراعوا هذه الشروط ويحافظوا على ما ورد فيها من العهود. ولقد وقف الأمير الوهابى متزيبا بزى الاحتفال، احتفاء بالمندوب المصرى وتوقيرا لحرمته، فقدم المندوب إليه سيفا وقال له: إن هذا السيف هو

الضمانة لخضوعك، وسيكون لك سنادا إذا أنت وفيت بعهدك، ونقمة إذا أنت خالفت أوامر السلطان، وانطلق المنادون بين الناس بإعلان الصلح، وفى مساء ذلك اليوم ذهب الوهابيون بالمؤن والأعلاف إلى معسكر طوسن. ولكى يمحو الرئيس الوهابى كل ريبة فى أمانته وحفظه لعهده طلب أن تكون أثمان هذه الأشياء من خاصة ماله.

آل سعود والوهابية لا عهد لهم [١]

وما ابتعدت الجنود المصرية عن البلاد حتى عين الوهابى حكاما للقسيم والعارض خلافا لما أخذه على نفسه من العهود، وأنزل نقمته بكل مشايع للسلطان، وحرض القبائل المواليه من العربان بعضها على بعض، وحصن المدائن الكبرى فى نجد. فلما عاد طوسن باشا إلى المدينة

(١) أثبتنا فى الكتاب الرابع من هذه السلسلة (شركة الإمامين لإبادة المسلمين) أن نسب آل سعود وابن عبد الوهاب ينتهى إلى قبائل يهودية، لذلك لا نعجب ألا يكون لهم عهد، كما وصف القرآن الكريم اليهود بقوله تعالى: ﴿ أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ (البقرة: ١٠٠).

نبهه كتابة إلى ما فى هذا المسلك من إخلاف الوعد ونقض العهد والخفر بالذمة، وأن ذلك كله ربما أفضى إلى خراب البلاد فلا تعود تقوم لها قائمة، فلجأ إلى مألوف عادته من التوسل والضراعة، فعفا عنه طوسن مكتفيا بإنذاره بأنه إذا عاد إلى الخيس بيمينه ونقض عهده، فإنه سيصب عليه جام غضبه ويورده موارد الهلكة، هو وأعضاء أسرته، ثم أذن إلى الرهائن من رجاله بالرجوع إلى قبائلهم بعد أن أقاموا بمكة زمنا، فجاءت الوفود من أهلهم ليقدموا إليه فروض الشكر على هذه الأريحية، أى: سعة الخلق والنشاط فى المعروف.

محمد على يعود إلى مصر

وفى أواخر يونيو ١٨١٥ قفل طوسن راجعا إلى المدينة لالتماس الراحة من عناء تلك الحرب الطويلة، فلم يجد بها والده الباشا لأن سليم أغا والى ينبع كان منذ ١٩ مايو قد تلقى الأمر منه بتجهيز سفينة للسفر ليلا. ففى اليوم التالى وصل محمد على إلى جدة راكبا الهجين يصحبه قليل من الحرس، ونزل فى السفينة وسار بها

على الفور، آمرا الربان بأن لا يشتط السواحل كالعادة، مع علمه بأن الماء المدخر فيها لا يفى بحاجة ركابها مدة السفر، بل أمره بأن يوغل فى البحر على خط مستقيم، فوصلت به إلى القصير وفيها لم يجد من الدواب ما يصلح للركوب سوى الحمير، فامتطى حمارا منها، وهكذا فعل حراسه واخترقوا الصحراء جميعا على متونها، ثم أقلع من قنا معهم فى قارب فوصل إلى القاهرة فى ١٩ يناير ١٨١٥، وفيها توارد العظماء والأعيان والقناصل والقواد يهنئونه بسلامة العودة، وبالفوز على الوهابيين.

وترجع هذه العودة الفجائية إلى أسباب ثلاثة: أولها ظهور شأن نابليون ثانيا فى أوربا، وثانيها وجود مؤامرة بمصر لقلب الحكومة. وثالثها تخوف أهل الأسكندرية من حركات الأسطول العثمانى الذى أخذ يتجول بعد خروجه من بحر مرمرة فى بحر الأرخبيل.

طوسن يقضى على حرب الشائعات ويعود إلى مصر

وقضى طوسن باشا شهر رمضان بالمدينة، وفيها سمع الإشاعات المتواترة بوقوع فتنة جسيمة بالقاهرة،

وأن محمدا عليا اغتاله الجنود الذين عاثوا فيها فسادا وانسابوا فى دورها وقصورها للنهب والسلب، وبدهى أن هذه الأنباء وأشباهها إذا تداولتها الألسنة أحدثت فى النفوس أثرا يجعل مركز الجيوش الموجودة بالحجاز محفوفا بالأخطار، فرأى طوسن باشا أن يوقى البلاد وخامة هذه العاقبة بالاستفهام من والى جدة عن حقيقة الأخبار، وأمره بأن يذكر فى إجابته أن قاصدا سيقوم وشيكا إلى المدينة حاملا رسالة بشرح الواقع. وقد وصل هذا القاصد فعلا وقرئت رسالته فى جمع من الناس، وفيها ما يبعث على الاطمئنان والاستبشار، فأمر بإطلاق المدافع إيذانا بذلك. ومؤدى الرسالة أن السكون لايزال شاملا لمصر، والهناء ناشرا عليها أجنحته. وكان مع هذه الرسالة رسالة أخرى تفيد حقيقة الواقع، ويؤخذ منها أن فتنة فشت فيها على أثر إدخال النظام الجديد فى الجيش، وهو ما سوف نتكلم عنه بما فيه الكفاية. وعلى كل حال فقد جازت حيلة طوسن باشا على الناس، ولإتمام فائدتها أرسل إلى نقطة قريبة من ينبع بعض فرق جيشه للارتحال منها إلى مصر، وقصد هو إلى هذا الثغر وأبحر

منه إلى مصر، فوصل فى ٤ من ذى الحجة ١٢٣٠ الموافق ٧ نوفمبر سنة ١٨١٥ إلى بركة الحاج، وكان فى استقباله بها الكبار من رجال حاشية الوالى وقواد الجند وأعيان القاهرة، وما استتب له المقام فيها حتى برحها إلى الأسكندرية وكان والده مقيما بها منذ ١٩ أكتوبر سنة ١٨١٥، فزاره ووالدته، وهناك حظى لأول مرة بمشاهدة عباس بك ابنه الذى رزق به أثناء تغيبه بالحجاز، وكان يبلغ من العمر عامين، وقد استصحبه فى عودته إلى القاهرة، كما استصحبه والده الباشا فى سفره من القاهرة إلى الأسكندرية.

آل سعود يماطلون ومحمد على ينذرهم

وقبل هذه الحوادث بثلاثة أسابيع رجع من مصر إلى نجد وفد عبد الله بن سعود الذى كان قد حضر للتصديق من محمد على باشا على الاتفاق الذى أبرمه معه طوسن باشا، وقد زود الوالى هذا الوفد قبل سفره برسائل إلى عبد الله يأخذ عليه فيها سيره بين الأهالى بالظلم والجور، وقتله الحجاج المسلمين من غير الحق، ومحاربته أهل

الحرمين الشريفين، وقدحه فى حق الحضرة السلطانية، ونهبه الحجرة النبوية ويدعوه إلى رد المسلوبات، وتسليم أمير المدينة زمام إمارة الدرعية عاصمة الوهابيين. **وأضاف إلى ماتقدم قوله:** إنه لا يدخل فى اختصاصه أعفاؤه من تقديم الحساب إلى الديوان السلطانى عن تصرفاته السابقة. فأجاب الأمير الوهابى بأن النفائس المسلوبة لم يبق عنده شئ منها لوقوع البيع أو الاقتسام عليها، ثم تنصل من السفر إلى الآستانة، فلما اطلع محمد على باشا على هذه الإجابة، وكان قد سئم مطل الوهابى وعناده، أخذ يرفض الهدايا التى كانت ترد تباعا إليه من عنده، وأنذره بأنه سيسير إليه فى القريب العاجل جيشا جراراً لا يفهم معنى الشفقة والرحمة، ومما ذكره فى إنذاره هذا بالنص: (سيصل إلى قطركم ولدنا العزيز إبراهيم، فينزل به الهلاك والخراب، ويرمى أعناقكم بسيفه، ولا يدع فى حاضرتكم حجرا على حجر، ويوجه بكم إلى أعتاب جلالة السلطان) إلخ.. وسنعرف مما يأتى كيف استطاع إبراهيم تنفيذ إنذار أبيه بحزمه، وكيف حقق هو بالفعل ما أعرب عنه هذا بالقول.

D:\كتب\الوهابية\٢٠doc.

ويؤخذ من أقوال شيخ عربان أوس- وهو ممن شهدوا هذه الحوادث بالعيان ورووها على الناس- أن محمد بن سعود واضع سياسة الوهابيين، ومؤسس مذهبهم والمحرك الأول لهذه الحرب الشعواء هلك فى أبريل سنة ١٨١٤ تاركا اثنى عشر ولدا خلفه فى الزعامة والحكم على الوهابيين، منهم أكبرهم عبد الله، فلنذكر الآن طرفا من أحوال هذا الزعيم الذى سيتجهز إبراهيم للاحتكاك به فى الحرب المقبلة.

من هو عبد الله بن سعود؟

كان عبد الله إذا انتهى من طعام العشاء اجتمع إليه أعضاء أسرته فى حلقة كبيرة فيشرح لهم الأحاديث النبوية، لأنه كان ضليعا فى العلوم الشرعية، متفوقا فيها على أبناء عصره، وكان العرب يضربون المثل بفصاحته وقوة حجته ودامغ برهانه، فى المناظرات والمناقشات، وكان كأبيه جهورى الصوت فى سلاسة ورقة، حتى أن السامع له وهو يتكلم يشعر بكلماته وقد وصلت إلى أعماق قلبه، وكان مع براعته وسعة علمه شديد التواضع حتى

كان إذا ناقش خصمه فأفحمه وألزمه العى، ثم استأنف مسترسلا فى بيانه وشرحه، ختم ذلك بقوله: (والله أعلم). وكان أبوه يبيح له فى عهده الجلوس أثناء الطعام بجوار العلماء ليأخذ حصته من اللحم والأرز، ويوليه النظر فى شؤون الأمة لمساعدته على القيام بأعبائها، وكان بالجملة الوحيد من إخوته الذى يوجه أبوه إليه السؤال بالاستشارة فيما هو دائر من المفاوضات أو المناقشات لامتيازه عنده بأصالة الرأى وصدق النظر، حتى لقد خصص له ٣٠٠ فارس فى حين أنه لم يخصص لكل من أبنائه الآخرين أكثر من ١٥٠ فارسا، وكان جميل الطلعة طلق المحيا كفيصل أصغر إخوته، وهو الذى اشتهر فى الدرعية بوسامة الوجه وجمال الطلعة، وبأنه أجمل فتيانها، فلما بلغ الحلم زوجه من ابنة شيخ قبيلة (الزاب) ونحر إكراما له ٣٥٠ قعودا و٢٥٠٠ رأس من الغنم، وهيأ لحومها طعاما لأهل الدرعية والغرباء ثلاثة أيام تباعا، وكان يملك ألفين من كرائم الخيل تأكل الشعير والكلاء فى مرابطها أو البرسيم فى مراعيها، أما الذلول من هجنه فكان لا يحصى له عد، كما كان لا يعرف عدد السود من

D:\كتب\الوهابية\٢٠doc.

عبيده[١]، وكان سعود يكره الامتياز على الناس بالثياب إذ لم يلبس قط سوى العباءة والقميص والكوفية، وهى ثياب الأفراد من متوسطى الحال، وكان لا يأذن لأحد ما أن ينهض واقفا إجلالا له، وكان الحقير كالجليل يغشى مجلسه فيسلم عليه بلسانه ويصافحه بيده، ومنع الناس من أن يلقبوه أو يكتبوه عند ندائهم له بغير (يا أبا عبد الله)، وكانوا مجمعين على إسناد معجزات كثيرة إلى رب هذه النفس العالية والخصال الكريمة، كما كانوا يقولون عن ولده عبد الله أنه الينبوع الدافق بهذه الفضائل والخصائص لما عرف عنه من أصالة الرأى وصواب الحكم، وكان سعود كث اللحية والشاربين فكنى لهذا السبب بأبى الشوارب، واشتهر منذ نعومة أظفاره بالبسالة لأنه وهو فى الثانية عشر من عمره ألقى بنفسه فى معركة كان

(١) كل هذه الثروات هى أموال المسلمين التى استحلها محمد بن سعود بالاتفاق مع محمد بن عبد الوهاب!!.

الخطر فيها منه قاب قوسين أو أدنى، فلم يعبأ به[١]، وكان لا يتجاوز حرسه ستة من الهجانة، فلما قلد الإمارة اكتفى عند شبوب القتال بالتزام المؤخرة للإشراف على الحركات، والأمر بتوجيهها على ما يرى فيه الضمانة للنجاح والفوز.

من هو إبراهيم باشا؟

وقد رويت حوادث كثيرة وشواهد تدل كلها على بسالة إبراهيم وإقدامه، وكان من القوة البدنية والشجاعة بحيث إذا ضرب الجمل الصغير بضربة واحدة من سيفه شطره، وفيما أظهره من ضروب البسالة فى حروبه مع البكوات الشراكسة، واقتفائه أثر العربان اللصوص بالصعيد ما هو مضرب الأمثال وقدوة الأبطال، وكان مع شدة بأسه كريم النفس رحيم القلب، وهو الذى توسط فى

(١) كعادة آل سعود فى نشر البطولات والخوارق الخرافية عن شخصياتهم، ومن أراد المزيد فليرجع إلى كتاب (الوهابية مملكة الفضائح) إصدار لجنة البحوث والدراسات بالطريقة العزمية.

D:\كتب\الوهابية\٢٠doc.

تأخير إنفاذ الإعدام فى أبى كريم شيخ قبيلة (طرحونة) رجاء أن يعفو السلطان عنه.

ابن سعود ينقض العهد ويتجهز للحرب

ولقد أخذ عبد الله بن سعود الوهابى حينما قرأ إنذار محمد على باشا يمعن النظر فى الأمر ويتأمل فى عواقبه ويقيس المستقبل بالماضى، فعول على أن يجمع إليه شيوخ وأكابر الزعماء فى الأقاليم لأخذ آرائهم دفعاً للمسئولية التى تترتب عليه تجاههم، فيما لو دارت الدائرة على الوهابيين، وبعد أن استوثق من مواقفهم على وجوب محاربة المصريين، خاطب عربان القبائل جميعا فى الاستعدد بها وختم خطابه إليهم بقوله:

(وإنا نحن نحارب للدفاع عن مذهبنا، والذود عن حياض وطننا، وعن الأمم والشعوب الكبيرة المقرة

بوحدانية الله، نحارب الكفرة والمشركين(١)، وإنما النصر بيد الله يؤتيه من يشاء).

وأخذ أئمة المساجد يخطبون فى الناس حثا على الجهاد، حتى أضرموا فى نفوسهم نار الحمية والغيرة على الدين والوطن، ويذكرونهم بما ينتظر المجاهدين من الثواب والمتخلفين من العقاب والعذاب، وباع الأمراء الوهابيون كل ما ملكت أيمانهم لدفع نفقات الحرب وسد ضروراتها، فاقتدى الناس بهم إذ قاموا قومة رجل واحد وتقلدوا السلاح وتنادوا بالدعوة إلى الكفاح، وانطلق عبد الله يعمل للدفاع ويتخذ وسائله، إذ نصب المدافع فى المعاقل والحصون حول عاصمته والمدن التى على طريق المدينة، وموَّن المواقع الحصينة بالزاد والذخائر، ونفى إلى الجهات القصية القواد المشتبه فى أمانتهم وصدق ولائهم، وأحل المخلصين محلهم، وطلب من

(١) لاحظ أنه يعتبر المصريين كفرة ومشركين!!.. وأنه هو المسؤول عن حماية الإسلام.. بالرغم من كل الجرائم التى قاموا بها والتى ذكرناها فيما مضى!!.

D:\كتب\الوهابية\٢٠doc.

الزعماء والمشايخ أداء الطاعة والإخلاص بين يديه، وحشد ثلاثين ألف مقاتل، جعل بعضهم للدفاع عن الدرعية، والآخرين للقتال متنقلين، أو لقطع خط الرجعة على الأعداء، ولم تكن هذه الاحتياطات والاستعدادات غير ذات بال إذ ما من جيش أو جمع من جيوش وجموع الوهابيين إلا وقد نهض للذود عن حمى الوطن المقدس، وكيف لا؟ والأمير الوهابى كان شديد الحرص على مكافأة العاملين، فلم ير جنديا امتاز فى الحرب الماضية بالبسالة والإخلاص إلا وقد أجزل له العطاء فوق ما هو مرتب له من الرواتب والمخصصات.

وكان عبد الله بن سعود يتخذ هذه التدابير بحكمة وتأن، ويستعين فى تنفيذها بسياسة صريحة ماهرة لا يجرأ غير الذين اعتادوا غمط الحقوق والغض من كرامة ذوى الفضل إنكار الغاية الشريفة التى ترمى إليها، ولما اجتمعت إلى عبد الله بن سعود تلك الجموع الحشيدة أخذ يشحذ حماسها، ويستثير نشاطها بفصيح عبارته، وتجاوبت الأصداء فى أنحاء آسيا كلها بسيرة هذه النهضة العامة والحركة المباركة للذود عن حياض الدين والوطن.

نفاق آل سعود

ولكن ما يستغرب منه ويقف المرء باهتا له أن يلتجئ بمحاولته شراء ذمة أميرى الحـــرمين بالمـــال، وتأكيـــده لمحمد على أن نجدا تحب الخير للسلطان وله، وأنها مـــع إجازتها للقوافل بالمرور تتعهد بحمايتها من الأشقياء، وأن العربان بعد أن أوقفهم أبناء سعود عند حدهم قـــد أخـــذوا المواثيق على أنفسهم أن يراعوا الصدق والأدب، وأنه لن يتوانى فى دفع العشور والمكوس إلى من يعتمدهم الباشا، وأن قصارى أمله أن يكون هو وآله وأتباعه من رعايـــاه المخلصين الذين لا يعوقهم مانع عن الانقـــضاض علـــى الخوارج، وأنه فى النهاية يلتمس العفو عما سلف، ويسأل الله أن يبارك فى عمر محمد على باشا ويتقبل منه أعماله الصالحات.

ذكاء وصرامة محمد على

وصل إلى مصر من طرف الوهابى قـــصاد يحملـــون هذه الرسالة، وكان الغرض الـــصحيح مـــن حـــضورهم الوقوف على التجهيزات المشروع فيهـــا لقتالـــه، ولكـــن محمدا عليا لم يكن ممن تجوز عليهم هذه الخدعة، علـــى

أنه استقبلهم كما لو لم يكن مرادهم التجسس، ومضى فى التسامح والتجوز معهم إلى حد أنه سهل علـــيهم المهمـــة

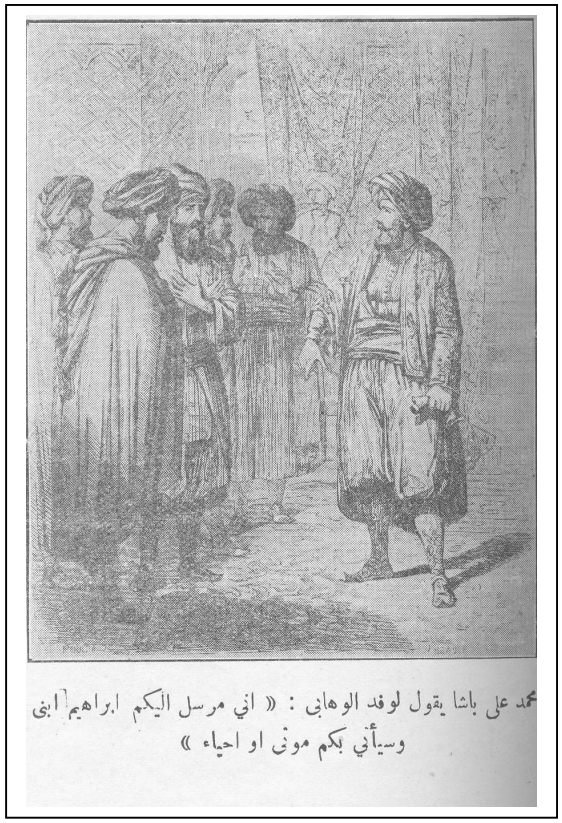

محمد على باشا يقول لوفد الوهابى : « اني مرسل اليكم ابراهيم ابنى وسيأتي بكم موتى او احياء »

التى جاءوا فى الحقيقة من أجلها، فبعث بهم يتفقدون المعسكرات والثكنات ومخازن معدات الحرب قبل أن يعربوا عن رغبتهم فى ذلك، ولم يسرهم بالطبع ما شهدوه من وفر المعدات وكثرة الجنود فانصرفوا عقب رؤيتها قلقين واجمين، وظلوا كذلك حتى إذا حان موعد سفرهم قال لهم محمد على: (ها أنتم قد حصنتم المدن وحشدتم الجند وتأهبتم للقتال وهو ما أنا موقن به فأخبروا مولاكم بأننى أحذره كل الحذر، وأدعوه إلى اتخاذ الحيطة لنفسه لأننى سأرسل إليه الأمير إبراهيم الذى سينزل به وبحزبه العقاب الصارم، وسيكون حظ عاصمتكم التلاشى والفناء، وخاتمة سكانها أن يؤتى بهم إلى هنا إما أسرى وإما قتلى، على أنه إذا حاسب عبد الله نفسه وحثها على الطاعة وحفظ العهود واحترام الأيمان فإن هذا أولى به وإلا أخضعته جنودى بقوة السيف، وأنه لجدير به الإسراع بالحضور ليسترد شرفه المضيع، ويصون بلاده من الخراب، وأعراض الحريم من الهتك والفضح، والنفوس البريئة من الهلاك، وإنى لممهله ما يريد من الوقت للتروى، فلا تضيعوا هذا الوقت فيما لا يفيد، واعلموا

أننى طويل الصبر والإناءة فى الانتقام، ولكن ذلك ليس بدافع له ولا بمانع من أن يكون شديدا).

وكتب محمد على رسالة إلى ابن سعود فى هذا المعنى، وأخرى إلى العربان يدعوهم إلى الطاعة لإبراهيم باشا قائلا أن وصوله إليهم لقريب، وداعيا إياهم بأداء ما يحتاجه من المؤن ووسائل النقل.

خيانة ابن سعود للوهابية

فلما وصل القاصدان إلى نجد أمرهما عبد الله أن لا يبوحا لأحد بسر ما انتهت إليه مهمتهما، ثم تناول الرسالتين الموجهتين إحداهما إليه والأخرى إلى العربان فمزقهما، ثم افترى رسالة من عنده بدلا منهما عنونها بعنوانه، وليس فيها شئ بالطبع مما ذكره الوالى فى رسالته الممزقة من التأنيب الشديد، وإذا ترك شيئا من هذا فقد وجه إلى أحزابه وأنصاره دونه، كما جعل المطاعن التى احتواها موجهة إلى العقيدة الوهابية لا إلى ما وقع من الخيانة السياسية، وزاد عليها عبارات المدح فى نفسه، واحتجاجا شديدا على ارتكاب الجرائم التى تلوث بالعار

كل وهابى لا يعدل عن المذهب الذى يتمسك به، وبلغت به الجرأة بعد ذلك أن تلا هذه الرسالة الملفقة فى مجلس حفيل بالكبار والأعيان، فكان جواب أعوانه جواب من تحركت فى نفوسهم عوامل الاعتبارات الدينية التى تجعلهم يصرون على مذهبهم، ويزدادون استمساكا بمبادئه فقالوا: إنه إذا اعتمد محمد على فى قتالهم على ابنه فإنما هم يعتمدون على مولى الوهابيين وهو الله جل شأنه، واستأنف عبد الله العمل بعد ذلك على إقامة الحصون والاستحكامات، وتفقد الأقاليم لهذا الغرض، وللاستيثاق من وفرة الذخائر والمؤن وكفاية الجيوش المحشودة وإخلاص الزعماء والرؤساء، وتعيين الفرق المخصصة لقطع خط الرجعة على العدو، أو مهاجمة القوافل أو الترصد للأعداء فى مكان مرورهم.

وفى أوائل سنة ١٨١٦ بث الزعيم الوهابى رسله فى أنحاء الحجاز يستصرخ بشيوخه على إبراهيم باشا.

D:\كتب\الوهابية\٢٠doc.

الفصل الثالث

الحملة المصرية الثانية

للقضاء على الوهابية

كانت عيون الناظرين لا تقع خلال الثمانية الأشهر التالية إلا على الجمال محملة بالأثقال من الدقيق والغلال ومهمات الجيش قاصدة السويس، والسفن صاعدة النيل إلى قنا مشحونة بالمدافع والقرب والبقسماط والذخائر، وعين قواد الحملة فخيموا بعساكرهم بين مصر القديمة وطرة، ونزل المشاة منهم وعددهم ألفان فى القوارب والسفن تحت إمرة البكباشية قاسم وبابا مصطفى وإسماعيل آغا، وسار حسن كاشف إلى بلاد العرب برا فى خمسمائة فارس من المغاربة على أن ينتظر فى ينبع وصول الأمير إبراهيم، واشتبه فى الشريف راجح أنه يدس الدسائس لصالح الوهابيين، فأرسل تحت الحفظ إلى القاهرة فى سبتمبر ١٨١٥، ولكن محمدا عليا تأكد براءته فأجزل له العطاء وأغدق عليه النعم، وطلب الشريف أثر

ذلك أن يرافق إبراهيم إلى المدينة ليؤثر فى القبائل بنفوذه الشخصى، واندرج فى سلك الجيش المصرى كثيرون من الإفرنج وهم على الأرجح أول من وطأ أرض نجد من الأجانب، نذكر منهم (فيسيير) الضابط الفرنسى الذى ألقت به على ضفاف النيل عواصف حوادث سنة ١٨١٥ بأوربا وكان ملازم ركاب إبراهيم باشا، و(أنطون أسكوتو) طبيبه، و(أندرى جانتيلى) و(تودسكينى) و(سوشيو) الجراحين الصيدليين، وقد عهدت إلى بعضهم مهمة إسعاف المرضى والجرحى. وفى ١٠ شوال ١٢٣١ الموافق ٥ سبتمبر ١٨١٦ ودع إبراهيم باشا أسرته ورجال الحكومة والعظماء، فناطت والدته برقبته عقدا من الجواهر سألته أن لا ينتزعه إلا فى الحجرة النبوية، هدية إلى الضريح الشريف من طرفها، فوعدها بالوفاء بهذا النذر، وبأن لا يقص شعر رأسه إلا بعد انتصاره على العدو عملا بوصيتها، ثم نزل مع أتباعه فى القنجات، أى: القوارب، بساحل مصر القديمة، فأقلعت به نحو الجنوب.

قضى إبراهيم ثلاثة أيام فى النيل حينما بلغ إلى موردة الحمراء بالضفة اليسرى- وكان بينها وأسيوط جسر

يؤدى بالسائر إلى هذا البندر- من غير عناء كبير، ولأهمية موقع هذه المدينة وكثرة سكانها البالغ عددهم ١٥٠٠٠ نسمة، ولأنها ملتقى القوافل الآتية من النوبة والسودان، ولاتساع نطاق تجارتها ووفرة فواكهها وثمارها وغلالها وكتانها وقطنها ونيلتها كانت عاصمة الصعيد كله.

وكان كل ما فيها من أشجار المشمش والتين والرمان والنبق والجميز، والمقابر المظلمة المنقورة فى الجبال لإقامة مراسيم الجنائز على الموتى أيام الوثنية، ولتفرغ الزهاد للعبادة على عهد المسيحية، يعرفه إبراهيم باشا مذ كان واليا على الصعيد، فاختار من أهل هذه الجهة بصفته القائد العام لجيوش الحملة على الوهابيين ألفين، رأى فيهم الصلاحية للخدمة فى معسكره، ويمم بهم وبجيشه إلى قنا وهى المدينة الواقعة على الضفة اليمنى، والمشهورة بآنيتها الصلصالية، وفيها دبر الوسائل لتصدير الأمتعة والمهمات، ففرغ مشحون القوارب منها، وحمل به ستة آلاف جمل جمعها من عربان قبيلة العبابدة فسارت إلى القصير. وقطع المشاة هذه الشقة سيرا على الأقدام، وزار

إبراهيم باشا فى قنا ضريحين لشيخين معروفين وتصدق فيهما على الفقراء، ثم سار على هجين ليدرك جيوشه فشيعه الأهلون بتصفيق الاستحسان وهتاف الحمد والثناء، ورأى فى سيره أسراب الأوز البرى والطيور تصيح بصيحاتها المألوفة فتفاءل بها خيرا، ولم يقم بالقصير إلا ما كفى من الزمن لشحن السفن بالرجال والمؤن والمهمات والمدافع والذخائر، وتحركت هذه السفن فى أول ذى القعدة الموافق ٢٣ سبتمبر قاصدة الأقطار الحجازية.

وما ترك سواحل مصر حتى مر بجزر جبل الحسنى المحفوفة بكثبان الرمل وصخور المرجان التى تكسب الماء من بعيد ألوان قوس قزح، وفى هذه الجهة مكان يعتقد ربابنة السفن وملاحوها أنها مسكونة بشياطين خاصتها إيذاء السفن، وكانوا يتقون شرها بنثر الدقيق عليها كلما قاموا لتناول طعامهم، وهذا الاعتقاد شائع عند جميع الناس فى تلك الجهات، فلما مرت السفن المقلة للحملة ومهماتها تجاه تلك الجزر لم يعبأ إبراهيم باشا بتلك الخرافة وإنما أرسل كمية من البقسماط والسمن والبن،

بناء على عادة قديمة مرعية هناك، إلى القبيلة الموكول إليها حراسة روضة الشيخ حسن ولىّ هذه البقعة وقطبها.

إبراهيم باشا بينبع

وفى ٨ ذى القعدة الموفق ٣٠ سبتمبر ألقت السفن مراسيها فى مياه ينبع، فنزل مع كبار ضباطه سراى الحاكم وجعل عسكره خارج أسوارها، ولقد أحسن الاختيار لأن بعدها عن الحدود الغربية لنجد لا يزيد على مسيرة أربع ليال لأنها ذات أبراج وطيدة ومواصلات سهلة مع القاهرة والأسكندرية، ومنها تستمد كل ما يلزمها من الحاجيات الغذائية وغيرها، على أنها منذ افتتحها المصريون فى خريف ١٨١١ صارت المستودع العام لمهماتهم العسكرية، هذا فضلا عن أن هناك ذراعا من الماء تشقها من وسطها، وأن عمق الماء فيها لا يكفى لرسو السفن الضخمة ووقايتها من الأمواج، وما لم يستحسنه منها وتأذى به كل التأذى انتشار الذباب فيها انتشارا مروعا مزعجا، فإنه يداهم السفن المقبلة أسرابا كثيفة ويقيم بها ويلازمها فى كل مكان قصدت إليه، وهذه

الخاصة فيه مضجرة لأهل البلد أيضا، لأنه حيثما ساروا وإينما حلوا يحف بهم كما يحف الحرس والجند بالأمراء، وإذا جلسوا على الطعام انتشر على موائدهم وتساقط فى الأطباق، وإذا صدوه عنهم بالمراوح والمذبات عاد فى أقل من طرفة العين إلى حيث كان، ولقد عيل (ذهب) منه صبر إبراهيم لاسيما وقد تضاعف عدده إلى ما لا يحصى من المرات فى السنوات الأربع التى كثر فيها عدد الموتى وتفشى الأمراض بسبب القتال، على أنه قد خفف ضجره منه بعض الشئ بانكبابه على البحث فى أحوال ينبع واهتمامه بأخلاقهم وعاداتهم وإعدادهم إلى ما يوافق نجاح مقصده فيما هو مقبل عليه من الحروب العنيفة، فكان أول عمله أثناء مقامه بينبع عرضه الجيوش عرضا استدعى ارتياحه لحسن منظرهم وسهولة حركاتهم، وكان له التأثير فى نفوس الأهلين، فإنه لم تمض أيام عليه حتى أقبلت على المدينة وفود القرى المجاورة والقبائل المتحابة يقدمون إليه فوق ما طلبه منهم من وسائل النقل التى ما كادت تتوافر حتى عجل بالقيام فى جيشه إلى المدينة، وكان قد تقدمه فى قلة من حرسه فوصل إليها فى ٢٧ ذى

القعدة الموافق ٦ أكتوبر ١٨١٦.

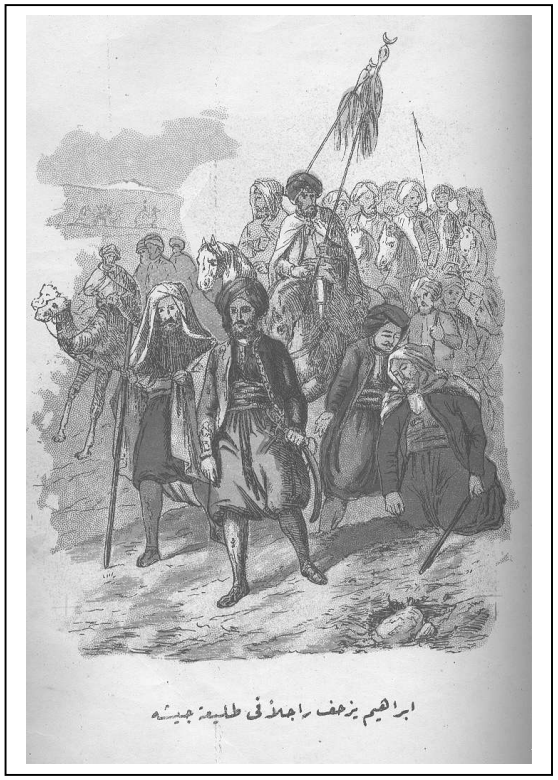

إبراهيم باشا فى المدينة

وبيان هذه الرحلة أنه بعد أن اجتاز الخليج الممتد وسط ينبع أوغل فى سهل فسيح كانت تنبثق فيه هنا وهناك شجيرات تذهب بشئ من جفاء لونه الطبيعى، ومر بعد ذلك بأشجار لبخ تلقى أفنائها الملتفة ظلا يخفف وطأة القيظ، ومازال سائرا حتى وصل إلى (بريكة) قبلى ينبع، واجتاز كثبان الرمل المتحركة التى يأوى إليها طير الرخم، وهناك قمة تنسب إلى الإمام على بن أبى طالب لأنه وقف عليها فى واقعة بدر، وهذا المكان على مسيرة يومين من الساحل و٣٥ ساعة من ينبع، وهو ملتقى حجاج مصر والشام فى ذهابهم معا إلى مكة، وقف إبراهيم باشا على تلك الربوة يتأمل فى مواقف الجيشين المتحاربين، جيش قريش على السفوح الجنوبية وجيش النبى محمد– ﷺ– فى السهل وعلى المرتفعات الغربية، ووقف خاشعا أمام أضرحة الصحابة الثلاثة عشر الذين قتلوا عند أول صدمة بين الجيشين، ثم أمام أطلال القباب

التى هدمها الوهابيون، وزار بعد ذلك مسجد الغمامة التى أظلت النبى فى المكان الذى بنى هذا المسجد عليه، وبرح إبراهيم باشا بدرا فاجتاز أودية عريضة متعرجة فيها ينبت السنا والحشائش العطرية التى اشتهرت مكة بها، ومر بقرية (جديد) وصعد فى صخور (ثنية واسط) متقدما نحو العيون والينابيع التى تروى مياهها حدائق (الواسط) ثم مر بين صفى نخل ينتهيان إلى الصفراء وهى سوق القبائل المجاورة، وعلى مسيرة أربع ساعات من (الدار الحمراء) ثم (الجديدة) مقر قبائل بنى حرب الذين طالما دفع لهم الحجاج الأموال تأمينا لطريقهم. وبلغ إبراهيم عقب اجتياز هذه الفدافد إلى بلدة (الكيف) فوادى (مدك) حيث زار روضات الشهداء من الصحابة وصعد بعد ذلك فى منحدر (الفريش) و(السلسلة) ، ثم ذهب هابطا إلى ضفاف وادى (العقيق) التى يضوع فيها شذا النباتات العطرية، واخترق هذا المسيل الذى يترنم به شعراء العرب فسار حتى لم يبق بينه وبين المكان الذى يقصد

إليه إلا ثلاثة أرباع الساعة، والأرض فى هذا الطريق هى من دون الأراضى الموصلة إلى المدينة قحلاء كثيرة الحزون لا نبت بها، بخلافها من حولها شمالا وجنوبا وشرقا حيث يكثر النخل وتمتد حقول الشعير والحنطة إلى مدى بعيد، تتخللها فيه مساكن المزارعين والبيوت الخلوية التى تقصد للتنزه وتبديل الهواء.

استقبل إبراهيم باشا بطلقات البنادق، وحياه عند وصوله آغا الحرم ومعه ثمانون من الحرس، ووفد للسلام عليه مؤلف من القاضى والسادات والشرفاء والشيوخ، ثم دخل باب القاهرة وهو أكبر الأبواب وأحسنها بناء وإن يكن من الخشب كبقية الأبواب، واجتاز الأسوار التى تحتوى خمسة وأربعين برجاً، ويحيط بها خندق من عمل الوهابيين، وقلعة فوق الصخر تسع ٨٠٠ من المقاتلة، وفيها بئر ماؤها صالح للشراب، وغرف عديدة مسقوفة لا تؤثر فيها القنابل، واجتاز (سوق العنبرية) ثم (المناخ) الذى تقف عنده القوافل وفيه الحوانيت لبيع السلع على

اختلافها، وكان مروره بهذا المكان بين صفوف متلاحمة من العربان والهجانة وخيل للرائين أن سطوح القهوات توشك أن تنوء بمن فوقها من المتفرجين، ووقف نظر إبراهيم على بيت النبى محمد- ﷺ- أثناء مروره أكثر مما وقف على الدور الجميلة ذات الأحواض المرمرية التى يلذ للإنسان النوم بجوارها فى القيلولة، وحارة العنبرية ذات الطرقات الواسعة المستقيمة المبلطة بالبلاط الكثير.

إبراهيم باشا يزور الحبيب المصطفى ﷺ وآله

وواصل السير إلى الأمام على خط مستقيم فوجد أمامه الحرم المدنى- الذى كانت تلوح له منذ قصد إلى قبته الرصاصية العالية تعلوها أكرة مذهبة فوقها هلال مذهب- فقام بما هو مفروض على كل مسلم فى العالم أن يؤديه من شعائر الزيارة، وكان رجال حرسه قبل وصولهم قد تطهروا وتوضأوا وتضمخوا بالمواد

العطرية، وأطال إبراهيم النظر فى جهة من الحرم بها مأذنة كان بلال الحبشى يدعو المؤمنين منها إلى الصلاة، ثم صعد فى الدرج المؤدى إلى الباب المسمى الآن بباب السلام، وذكر السمهودى أنه كان يسمى قبلا بباب مروان، فشهد جوانبه المكسوة بالمرمر ونقوشه البارزة، واجتاز بقدمه اليمنى عتبة مبلطة بالرخام الجميل، ثم سار متحرك الشفتين بالأدعية والصلوات فى طريق فرش بالحصر وحفت به أعمدة من الحجر متصلة الأسطوانات بالأرض، متجها نحو الروضة فركع أربع ركعات على سجادة صوف فى الصف الأول من الحاجز الموازى للجدار الجنوبى وعلى مقربة من الإمام الذى لا يدنو منه أثناء الصلاة إلا الكبار والعظماء، وبعد أن قرأ السورتين التاسعة بعد المائة والثانية عشر بعد المائة من القرآن الشريف تقدم بتؤدة وسكون نحو الشباك الحديدى الأخضر الذى يليه الضريح النبوى، فوقف أمامه باسطا يديه مسلما بقوله: (السلام عليك يا محمد.. السلام عليك يا رسول

الله) ثم طفق يذكر أسماء الرسول، وبعد أن قضى بضع دقائق فى التأمل تراجع إلى الخلف ثلاث خطوات وركع أربع ركعات أخرى، ثم تقدم نحو الشباك الأيسر الذى يرى منه ضريح أبى بكر الصديق، ثم إلى الثالث من الشمال أيضا تجاه ضريح عمر بن الخطاب، وقرأ أمام الضريحين ما تيسر من الآيات والدعوات، ومن ثم إلى ضريح مجلل بقماش أسود مشغول هو الضريح الذى يضم إليه السيدة فاطمة الزهراء، ولكن يذهب البعض إلى أنها دفنت خارج المدينة على بعد نصف كيلو متر من (باب الجمعة)، وبعد أن صلى أربع ركعات وقف أمام الفتحة الجنوبية التى كتب عليها (لا إله إلا الله الحق المبين)، فدخل المكان المخصص للباشوات ورؤساء قوافل الحج، فإذا به أمام تابوت مصفح بالفضة، فتوسل بالنبى داعيا إلى الله أن يشتت شمل الأعداء، ويجعل جهنم مباءة لهم، ولبس الآغوات أفخر ما عندهم من الشيلان الكشميرية والثياب الحريرية وأحاطوا بمائدتهم، ولبس

رئيسهم وهو شيخ الحرم رداء مزركشا بجنبية مرصعة بالماس، ووضع على رأسه القاووق، ثم وقف وسط الفراشين وبأيديهم العصى الطويلة باسطا كفيه بالدعاء إلى الله أن يكلأ إبراهيم باشا كبير أبناء محمد على بعين عنايته، وأن يلهمه الحكمة والصواب فى تمزيق شمل أعداء الدين وأعدائه، وتأييد الشرع ونصرة الكتاب الكريم، وتلاه إبراهيم باشا فطلب من الله تعالى أن يشد أزره ويقوى ساعده للبطش بأعداء الدين وتمزيق شملهم وتشتيت جموعهم، وأقسم أن لا يدخل السيف فى غمده إلا إذا فتك بهم وأفناهم، وأن يعتق إذا ما كللت حروبه بالنصر، جميع ما ملكت يمينه من الأرقاء بيضا وسودا، وأن لا يشرب ما بقى حيا خمرا أو شرابا حرَّمه القرآن، وأن يذبح ثلاثة آلاف كبش على جبل عرفات، ثم مد يده فوضع على الضريح النبوى العقد الثمين الذى سلمته والدته إليه لهذا الغرض.

وظل فى الحرم طويلا مصليا وداعيا ومتأملا فى

الشموع الكبيرة التى توقد كل مساء إلى جانبى المنبر وأمام المحراب، وهى من الشموع التى بعث قائد بك بعضها من الأسكندرية، وبعث سليمان بن سليم البعض الآخر من الآستانة العلية، وكان إبراهيم كثير البذل والعطاء فلم يترك أحدا من الجالسين فى الحرم إلا وألقى فى منديله شيئا من المال، وفعل مثل هذا مع النساء اللائى يجلسن بالقرب من شباك السيدة فاطمة والأئمة والمؤذنين والمزورين والآغوات حُرَّاس الحرم، لهذا تطابقت الألسنة بالثناء على الزائر الجليل، وما من فقير أو مسكين فى خارج الحرم إلا وظفر بقسط من تلك التبرعات وأطلق لسانه بصالح الدعوات.

إبراهيم باشا يوفى بعهده مع الله ويزور روضات الصالحين

وما انتهى من الزيارة وعاد إلى داره حتى بادر بالوفاء مقدما بما نذر به، إذ أمر بتحرير أوراق العتق لأرقائه جميعا بشرط استمرارهم على مرافقته مدة الحرب

كلها ولا يتركونه، وعمد إلى الخمر التى كان قد أحضرها معه فكسرها وأهرق ما فيها، وبعد أن قام بالفروض ووفى بالعهود والنذور، على هذا المثال زار البقيع فى ضاحية المدينة وهى مقبرتها ورأس الطريق المؤدى إلى نجد، ودعا وصلى أمام روضات آل البيت النبوى ومنهم إبراهيم بن النبى- ﷺ- وبعض نسائه وخالاته، وفاطمة بنت أسد أم الإمام على بن أبى طالب، والعباس بن عبد المطلب، ثم الإمام مالك بن أنس، وعثمان بن عفان، وروضات الشهداء الذين قتلهم بهذا المكان فى عهد يزيد ابن معاوية خوارج الشام سنة ٦٢ للهجرة، ودعا إبراهيم باشا لكل منهم أمام روضته بدعاء قصير، ثم برح المدينة بعد ذلك من شمالها فوصل جبل أحد الذى تقاتل النبى محمد فيه بجيشه الصغير مع قريش، واستشهد فيه حمزة عم النبى وسبعون من الصحابة، ولما اجتاز المكان الذى ينصب الحجاج السوريون فيه مخيمهم وبه الآبار التى يسقون الماء منها صلى عند الأطلال التى لبس النبى

محمد بجوارها الدرع قبل النزول فى ميدان القتال، ثم استند إلى حجر قريب منها مدة دقائق قرأ أثناءها سورة الفاتحة، واستأنف السير إلى الشرق فى طريق وعر حتى وصل إلى مسجد صغير بالقرب من صهريج ماء يوجد فى صحنه ضريح سيدنا حمزة وأضرحة من استشهدوا معه من الصحابة، فابتهل إبراهيم إلى الله تعالى أن يبث فى نفوس رجاله الإيمان والبسالة، وقرأ سورة الإخلاص مكررا إياها أربعين مرة.

وعلى مرمى البندقية من هذا المكان ركع بعض ركعات فوق أطلال قبة هدمت، وكانت تدل على الموقع الذى أصيب النبى محمد فيه أثناء القتال بحجر ظن أصحابه أنه توفى بسببه، ولم يكن فى الأمر سوى أن كسر بعض أسنانه، وتلا إبراهيم بعد ذلك على روضات الاثنى عشر صحابيا الذين استشهدوا فى الواقعة ما تيسر من آى القرآن الكريم، وخطا خطوات على منحدر جبل أحد فإذا به أمام المكان الذى انتهت تلك الواقعة فيه

بنصرة الدين، وستبعث قممها الصخرية الثلاث مع الأحياء يوم الدين، وما برح ينتقل من زيارة موضع إلى زيارة موضع حتى بلغ إلى (قباء) من سهول رملية بيضاء تحف بها حدائق ذات فواكه وأعناب، وتتابعت مناظر النباتات الناضرة والأشجار المثمرة حتى لكأن هذه البقاع أرادت أن لا تقع العين منها إلا على ما يثير فى نفسه ذكرى مصر ذات المزارع الواسعة والأشجار الباسقة، وكان مما استرعى نظره مصلاة الإمام على بن أبى طالب تتضوع من حولها الأرواح الزكية، والمسجد الذى وضع النبى أساسه بيده، وزار مناخ الناقة التى هاجر النبى عليها من مكة، ولم تبرحه إشارة إلى أنه مما يحسن البقاء فيه، فالبئر المعروفة بالعين الزرقاء.

الإجرام الوهابى فى حق روضات الصالحين

وبالجملة لم يمر إبراهيم ببناية أو قبة أو روضة إلا ورأى أن الوهابيين قد عبثوا به إتلافا وهدما، ذلك لأن مذهبهم يقول بتساوى الخلائق أمام الله، وينكر كل أثر لهم

D:\كتب\الوهابية\٢٠doc.

ولو بلغوا من الولاية والكرامة إلى الدرجة القصوى، فكان بدهيا أن يحرم التزويق والنقوش فى المقابر، وكل ما يتعلق بالموتى، وكان فى مقدمة ما تناولوه بيد التدمير روضات الأولياء والصالحين التى لا تخلو منها قرية، بل تقام لهم فى كل سنة حفلات الموالد يشترك فيها الأهلون نساء ورجالا كبارا وأطفالا.

تطهير الجيش من المفسدين

وكان محتملا بل ومتوقعا أن يحول فساد النظام فى الجيش وجهل العساكر بما يترتب على الطاعة من استقامة الأحوال أن لا يلقى المجرمون الذين دنسوا تلك الأماكن المقدسة عقابا ما. فقد كان ضمن الجيش المصرى فريق من الأرنؤود لا يفقهون معنى الطاعة، وأحس محمد على بما ينجم عن وجودهم من الضرر فعجل بتطهير البلاد منهم، لكيلا يسرى فسادهم إلى غيرهم، وأدرك إبراهيم باشا ذلك يوم أمر بتوقيع العقوبات على فريق من المجرمين بعضهم بالضرب والبعض بالإعدام، فامتنع

أولئك العساكر عن تنفيذها مع مطابقتها للعدل، ولقد نفذت فجاءت بفائدة جليلة أقلها مبادرة أهل المدينة بالانحياز إلى جانبه، كما انحاز سكان ينبع من قبل حينما طلعت عليهم دوننمته، وقد امتاز أهل الجهات المغروسة نخلا فى تلك الأرجاء بالقيام فى وجه الوهابيين دفاعا عن مزروعاتهم بحماس تستدعيه مخالفتهم إياهم فى مذهبهم ومرافقهم، لأنهم من أهل السنة ظاهرا ومن الشيعة باطنا، فاغتنم إبراهيم هذه الفرصة لتوطيد مركزه فى الحجاز بصيانة الحدود الفاصلة بين الفريقين من شر الغارات الوهابية، والسماح لحجاج الشام بالمرور آمنين، وفى ١٣ ذى الحجة أى فى اليوم الرابع من عيد الأضحى كاشف إبراهيم باشا آغا حراس الحرم برغبته فى قضاء ليلة بطولها فى حظيرة المسجد، فأقفلت أبوابه عليه فى الساعة الثالثة بعد الغروب ثم برحه بعد الفجر بساعة تاركا المدينة لإدراك معسكره.

عدم دخول غير المسلمين المدينة

أما الأوربيون الذين اندرجوا فى سلك أركان حرب إبراهيم باشا فقد اضطروا إلى البقاء فى ينبع، كما بقى خارج أسوارها قبل أربع ساعات أثناء الحملة الماضية اليونانيون الكاثوليك وغيرهم من المسيحيين الذين كانوا فى خدمة الجيش. ذلك لأن النبى محمدا حرَّم دخول مدينته على كل ذى مذهب ما لم يكن من المسلمين، وهذا التحريم سار على مكة أيضاً، حتى أنه من الراسخ فى اعتقاد القوم أن غير المسلم لا يلبث إذا اطلع عليها من بعيد من أن يصاب بالعمى، أو إذا اجتاز بابا من أبوابها أن يموت فجأة ما لم يلهمه الله بالخروج من دينه لاعتناق الإسلام فإنه عندئذ يوقى العمى أو الموت. والأرض التى تحيط بالمدينة فى دائرة طولها ١٢ ميلا وتكتنفها الجبال جنوبا وشمالا تعتبر من الحرم، فلا يهدر فيها دم الكافر الذى يحاول وطأها بقدميه، أو دم عدو يريد الشر والعدوان بها ولا يمس بأذى أو عطب شئ ما من

الأشجار والأطيار.

ولقد حدث فى جمادى الثانى عام ٦٥٤ للهجرة أن زلزلت الأرض زلزالها فتهدمت البيوت وسقطت الأسوار واندلع من جوف الأرض لهب شديد يمثل مدينة تتجه أسوارها ومناراتها نحو السماء، ويتخلله مع تحول لونه إلى الأرجوانى تارة واللازوردى تارة أخرى دوى الرعد وانقشاع ظلمات الليل حتى صار نهارا ساطعا بل أسطع ما يكون إذا تكبدت الشمس السماء، وظلت الحالة خمسة أيام فاستطاع بدوى من تيماء أن يكتب ما شاء على ضوء ذلك اللهب وهو سائر فى الصحراء على مسافة ثمانين فرسخا، وخيل الناس أن القيامة قد قامت وأنهم لمحشورون إذ جاء فى حديث نبوى وصف علامات الساعة بأنها تكون إذا ظهر فى الحجاز ضوء يضئ أعناق الجمال، وكان عرض ذلك اللهب أربعة فراسخ، أى: اثنى عشر ميلا فى طول أكثر من فرسخ وسمك ثلاثة أمتار، وقد تدهورت الصخور وانقلبت الكثبان

والآكام.

ولما كان النبى-ﷺ- قد حرم إتلاف شجرة ما فى حدود الحرم فلم يتناول لسان ذلك اللهب الأشجار الداخلة فى هذه الحدود، وكان أهل المدينة يعتبرون وصول المسيحيين إليها مصابا كبيرا ورزءاً تخشى عاقبته، فقد راعى المسيحيون الذين فى جيش إبراهيم ذلك التحريم واحترموه مذ وقفوا على حقيقته.

البقية فى الجزء الثانى إن شاء الله تعالى.